مجلة «اعتصام» الإلكترونية| عدد خاص بأسبوع الوحدة، ذكرى مولد النبى الأكرم (ص)
السنة الأولى / العدد الأول / ربيع الاول ١۴۴٨

فهرس المحتويات

فينومينولوجيا العلاقات الاجتماعية للمسلمين فى ضوء الوحدة الإسلامية بالاستناد إلى بيانات الإمام الخامنئى الشهيد..... ٣
أهمية الوحدة الإسلامية فى ضوء القرآن والحديث..... ١١
مقاربة التفسير لقضية الوحدة الإسلامية (بالاعتماد على تفاسير الفريقين)..... ١٥
السيرة العملية للنبى صلى الله عليه وآله: الركيزة الأساس لحفظ وحدة الأمة وتماسكها ٢٨
شخصية نبى الإسلام فى مرآة المستشرقين والمفكرين الغربيين..... ٣١
الوحدة: عقيدة واستراتيجية للمجتمع السليم والمتطور..... ٤١
وحدة العالم الإسلامى من منظور الإمام الخمينى (قده)..... ٤٣
الميرزا خليل الكمره‌اى ونموذج التقريب الإسلامى..... ٥٤

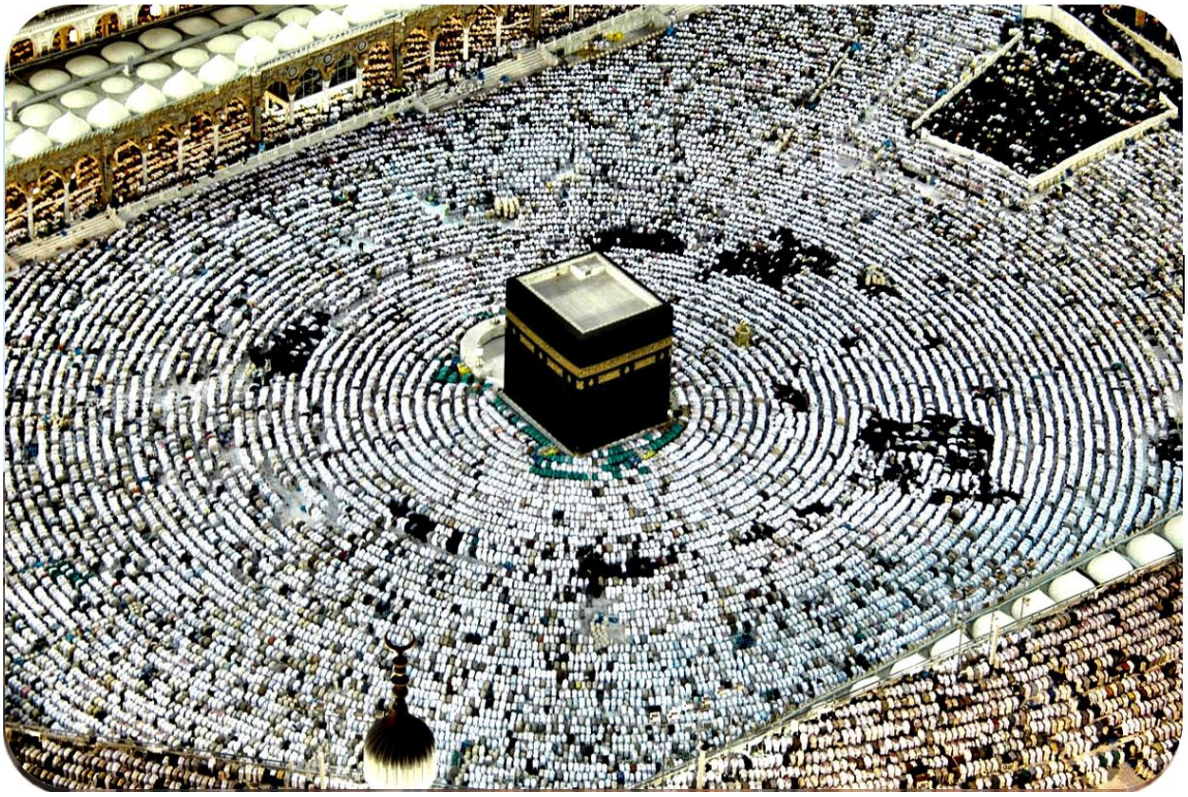

فينومينولوجيا العلاقات الاجتماعية للمسلمين فى ضوء الوحدة الإسلامية بالاستناد إلى بيانات الإمام الخامنئى الشهيد

الباحث: حجة الإسلام والمسلمين الدكتور حسين بريجى

الملخص

تعد الوحدة الإسلامية من القضايا الأساسية فى العالم الإسلامى؛ ذلک أن المسلمين، على الرغم من اشتراکهم فى أصول من قبيل التوحيد، والنبوة، والقرآن الكريم، والقبلة، وكثير من الشعائر الدينية، يواجهون فى مجال العلاقات الاجتماعية أضراراً من قبيل سوء الظن، والتكفير، والانتقاص من الهوية، والنزاع المذهبى، وضعف التعاون. وتتمثل القضية الأساسية لهذه المقالة فى دراسة الفجوة بين المشترکات الاعتقادية للمسلمين وواقع علاقاتهم الاجتماعية. وتتخذ هذه الدراسة، من خلال منهج وصفى ـ تحليلى، واستناداً إلى المبادئ القرآنية والرؤى التقريبية للإمام الخمينى (قدس سره) والإمام الخامنئى الشهيد (قدس سره)، من الوحدة مبدأً إسلامياً وميثاقاً اجتماعياً قائماً على الأخوة الإيمانية، لا مصلحة مؤقتة. وبناءً على هذا المنهج، لا تعنى الوحدة الإسلامية إلغاء الاختلافات المذهبية أو توحيد الآراء الفقهية والكلامية، بل تعنى الإدارة العقلانية والأخلاقية للاختلافات، وصون كرامة أتباع المذاهب، واحترام مقدسات بعضهم بعضاً، والتعاون فى القضايا المشترکة للأمة الإسلامية. ويعد التعارف المتبادل، وتصحيح التصورات السلبية، وتجنب الإهانة والتكفير، والتعاون العملى، من أهم مقومات تحقيق العلاقات الاجتماعية الوحدوية. وفى هذا المسار، تتولى المؤسسات التقريبية، وعلماء الدين، والحوزات العلمية، والجامعات، ووسائل الإعلام، والنخب الثقافية مسؤولية نقل الوحدة من مستوى الشعار إلى ثقافة وآلية مستدامة فى الحياة الاجتماعية للمسلمين.

الكلمات المفتاحية: العلاقات الاجتماعية، الأخوة الإيمانية، تقريب المذاهب، الفينومينولوجيا، الهوية التوحيدية، الإمام الخامنئي (قدس سره).

١. تمهيد: مسألة الانفصال بين الاشتراك الاعتقادي والعلاقات الاجتماعية

يشترك المسلمون في أصول الدين الأساسية اشتراكاً واسعاً. فالإيمان بالله الواحد، والإقرار بالقرآن الكريم، والاعتقاد بخاتمية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ووحدة القبلة، والاشتراك في جانب مهم من العبادات، تشكل العناصر الأساسية لهويتهم المشتركة. ومع ذلك، لم تؤد هذه المشتركات الاعتقادية دائماً إلى علاقات اجتماعية أخوية وتعاون بين المسلمين. ففي عدد من المجتمعات الإسلامية، تحولت الاختلافات المذهبية، بدلاً من أن تكون أرضية للحوار والتعارف المتبادل، إلى سوء تفاهم، وتشاؤم، واحتقار، وتكفير، بل وإلى عنف أحياناً.

ومن منظور القرآن الكريم، فإن العلاقة الأساسية بين المؤمنين هي علاقة الأخوة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠). كما يدعو القرآن الكريم المسلمين إلى الاعتصام الجماعي بحبل الله وتجنب التفرقة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣). ومن ثم، لا يمكن اختزال الوحدة الإسلامية في مجرد توصية أخلاقية أو توافق سياسي؛ فالوحدة قضية اجتماعية تتصل بكيفية «وجود المسلمين معاً». ويصرح الإمام الخامنئي الشهيد (قدس سره) بأن: «الوحدة ليست أمراً تكتيكياً أو مصلحياً محدوداً بالظروف السياسية، بل هي أصل إسلامي ومن المبادئ القرآنية» (الإمام الخامنئي الشهيد قدس سره، ١٣٩٣/٠٧/٢١هـ.ش؛ وانظر أيضاً: الإمام الخامنئي الشهيد قدس سره، ١٤٠٣/٠٦/٢٦هـ.ش).

إن إهانة المقدسات، ووضع الملصقات، والتكفير، ليست مجرد اختلافات نظرية أو كلامية؛ بل إنها تقضي مباشرة على إمكانية تشكل علاقات أخوية. والتيارات المتطرفة التي تنشط باسم التشيع أو التسنن، وإن كانت ترفع شعارات مختلفة ظاهرياً، فإنها تشترك في نتائجها العملية؛ لأنها تعمل على تخريب الثقة العامة، من خلال إثارة المشاعر المذهبية، وتحويل الاختلاف المذهبي إلى تعارض اجتماعي وأمني (الإمام الخامنئي الشهيد قدس سره، ١٣٨٨/٠٢/٢٣هـ.ش). ومن هنا، يؤكد سماحته، مع التصريح برفضه القاطع إهانة مقدسات أهل السنة ورموزهم، ضرورة الحيلولة دون السلوكيات التي تؤدي إلى تعميق الشرخ المذهبي وتهيئ الأرضية لاستغلال التيارات التفرقة والاستكبارية (الإمام الخامنئي الشهيد قدس سره، ١٣٩٤/٠٥/٢٦هـ.ش).

٢. الأسس الوجودية والمعيارية للوحدة الإسلامية

للوحدة الإسلامية ساحَتان أساسيتان: الأولى، الساحة الوجودية، وتتعلق بالهوية المشتركة للمسلمين وعضويتهم في الأمة الإسلامية؛ والثانية، الساحة المعيارية، وتحدد الكيفية المنشودة لساحة المعيارية، وتحدد الكيفية المنشودة لسلوك المسلمين بعضهميدية والأساس المشترك للأمة

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢). وبناءً على هذه الآية الشريفة، تستند الهوية الإسلامية، قبل ارتباطها بالتقسيمات المذهبية والقومية واللغوية، إلى التوحيد وعبادة الله الواحد (الطباطبائي، الميزان، ج ١٤، صص ٣١٦–٣١٧). ويعد التأكيد على الأصول المشتركة أحد أهم الاستراتيجيات لترسيخ الوحدة الإسلامية. فأتباع المذاهب الإسلامية، على الرغم من اختلافهم في بعض المسائل الفقهية والكلامية، يندرجون ضمن إطار الهوية الإسلامية الأوسع والأمة الواحدة؛ ومن ثم، لا يمكن للاختلاف المذهبي أن ينفي أصل انتمائهم إلى المجتمع الإسلامي ودائرة الإسلام.

كما يرفض الإمام الخامنئی الشهید (قدس سره)، مع تأکیده أن الوحدة «أصل إسلامی» ومتجذرة فی المبادئ الوحیانیة، اختزالها فی تکتیک مرحلی أیاً کان نوعه (الإمام الخامنئی الشهید قدس سره، ۱۳۹۱/۰۷/۲۱هـ.ش؛ الإمام الخامنئی الشهید قدس سره، ۱۴۰۳/۰۶/۲۶هـ.ش). ووفقاً لهذه الرؤیة، تعد الوحدة جزءاً من الهویة الدینیة للمسلمین ولازمة لحفظ عزة الأمة الإسلامیة واستقلالها واقتدارها.

۲ـ۲. الأخوة الإیمانیة؛ الصورة الاجتماعیة للهویة المشترکة

یعرف القرآن الکریم المؤمنین، بتعبیره الصریح: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ۱۰)، ضمن علاقة الأخوة. ولیست الأخوة الإیمانیة مجرد شعور عاطفی أو توصیة أخلاقیة؛ بل تترتب علیها مجموعة من الحقوق والمسؤولیات الاجتماعیة الشرعیة (الطباطبائی، المیزان، ج ۱۸، صص ۳۱۴–۳۱۵). ومن النتائج الاجتماعیة لهذه الأخوة: مراعاة کرامة الإنسان، وتقدیم العون، والوفاء بالعهد، وحفظ الحقوق المتبادلة، والاهتمام بمشکلات المسلمین الآخرین.

وبناءً علی ذلک، یتعارض الاحتقار، والإقصاء، والعنف، والإهانة، وحرمان المسلمین من حقوقهم الاجتماعیة مع منطق الأخوة الإسلامیة. فإذا اعتبر المسلمون أنفسهم أعضاء فی أمة واحدة وإخوة بعضهم لبعض، فلا ینبغی للاختلاف المذهبی أن یؤدی إلی إنکار کرامتهم أو سلب حقوقهم. ولا تتحقق الأخوة الإیمانیة إلا عندما تتجاوز مستوی الاعتقاد الذهنی وتظهر فی السلوکیات الفردیة والاجتماعیة والسیاسیة.

۲ـ۳. التفریق بین الاختلاف العلمی والخصومة المذهبیة

من النقاط الأساسیة فی بحث الوحدة التفریق بین الاختلاف العلمی والخصومة المذهبیة. فالاختلافات الفقهیة والکلامیة جزء من تاریخ الفکر الإسلامی، وقد نشأت فی کثیر من الحالات من جهود العلماء الرامیة إلی فهم النصوص الدینیة فهماً أدق. وهذه الاختلافات، إذا بقیت فی إطار الاستدلال، والحوار العلمی، ومراعاة آداب المناظرة، لا تتعارض بالضرورة مع الوحدة.

ویؤکد العلامة الطباطبائی (قدس سره) اشتراک المذاهب الإسلامیة فی أرکان الدین وضروریاته، ویری استمرار البحث والمناقشة العلمیة المنصفة أمراً ضروریاً لاکتشاف الحقائق، إلا أنه یمیز تمییزاً کاملاً بین حدود هذه المباحث والوقوع فی فخ التعصبات المذهبیة وفرض المسبقات علی النص الدینی (الطباطبائی، المیزان، ج ۱، صص ۱۰–۱۱).

وتبدأ المشکلة عندما یتحول الاختلاف العلمی إلی هجوم شخصی، ونشر للأکاذیب، ووضع للملصقات، وإثارة لسوء الظن، ونفی للهویة المذهبیة للآخرین. فالوحدة لا تعنی أن یتخلی الشیعة عن معتقداتهم أو أن یتنحی أهل السنة عن هویتهم المذهبیة؛ بل تتشکل الوحدة الحقیقیة مع الحفاظ علی الهویات المذهبیة ومراعاتها المتبادلة (الإمام الخامنئی الشهید قدس سره، ۱۳۹۹/۰۸/۱۳هـ.ش).

ویمکن للتعدد الاجتهادی، إذا اقترن بالأخلاق العلمیة، أن یکون رصیداً لحیویة التراث الإسلامی. ومن هنا، فإن هدف تقریب المذاهب لیس القضاء علی الاختلافات العلمیة، بل الحیلولة دون تحول هذه الاختلافات إلی عداوة وعنف.

۲ـ۴. نبذ العصبیات القومیة والمذهبیة

يقول القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

إن الاختلافات القومية﴾ (الحجرات: ١٣).

إن الاختلافات القوميةما وجدت للتعارف المتبادل لا للتفاضل والاستعلاء (الطباطبائی، الميزان، ج ١٨، صص ٣٢٦–٣٢٨). فلا ينبغی لأی قوم أو لغة أو مذهب أن يكون معياراً للتفوق الذاتی أو الكرامة الإنسانية أو التمتع بالحقوق الاجتماعية. كما لا ينبغی للانتماء القومی أو المذهبی أن يؤدی إلى التمييز وانعدام الثقة والعداء.

وكان الإمام الخمينی (قدس سره) يرى أن فصل المسلمين بعناوين من قبيل الترک والكردی والعربی والفارسی مؤامرة أجنبية تتعارض تماماً مع تعاليم القرآن والإسلام، وقد صرح مراراً بأن العرق والقومية ليسا معياراً فی الإسلام، وأن المسلمين جميعاً إخوة ومتساوون (الإمام الخمينی قدس سره، صحيفة النور، ج ١، ص ٣٩١؛ المصدر نفسه، ج ٦، ص ٨٤؛ المصدر نفسه، ج ١٣، صص ٢٠٩–٢١٠).

ومن ثم، ينبغی للهوية الإسلامية أن تتمكن، مع قبول التنوع الثقافی واللغوی، من منع تحول هذه الاختلافات إلى عوامل للنزاع.

٢ـ٥. انتقال الوحدة من القيمة الاعتقادية إلى الفعل الاجتماعی

تستقر الوحدة عندما تنتقل من مستوى الاعتقاد والشعار إلى مجال السلوک والمؤسسة الاجتماعية. ويعد التفاهم، والتعاون، والحوار العلمی، وتصحيح الذهنية العامة، ومراعاة الحقوق المتبادلة، والحضور المشترک فی قضايا الأمة، من أهم المظاهر العملية للوحدة.

ويعد تصحيح الذهنية العامة من أهم واجبات المؤسسات والملتقيات التقريبية. ويتحمل علماء الدين، والمبلغون، والكتاب، ووسائل الإعلام مسؤولية خاصة فی هذا المجال. فعليهم أن يقدموا المذاهب الإسلامية بصورة منصفة، وأن يتجنبوا النسب والاتهامات الباطلة، وأن يضبطوا الخطاب التحريضی والتفرقة. كما يمكن لتعليم آداب الحوار وتعزيز ثقافة الاستماع إلى الرأی المخالف أن يهيئ الأرضية للحد من سوء التفاهم.

ويمثل تأسيس مؤسسات من قبيل المجمع العالمی للتقريب بين المذاهب الإسلامية نموذجاً لمحاولة تنظيم مسار الوحدة وإيجاد تواصل مستمر بين علماء المذاهب ومفكريها؛ إذ تستطيع هذه المؤسسات، من خلال توفير أرضية التعارف والتفاهم، أن تحول الوحدة من مثل أعلى ذهنی إلى علاقات اجتماعية منظمة.

٣. مقومات العلاقات الاجتماعية الوحدوية

تقوم الوحدة الإسلامية فی العلاقات الاجتماعية على ثلاثة مقومات أساسية: التعارف المتبادل، واحترام المقدسات، والتعاون العملی.

٣ـ١. التعارف المتبادل وتصحيح التصورات السلبية

ينشأ جزء مهم من المسافة الفاصلة بين المسلمين، لا من اختلاف حقيقی فی المبادئ، بل من الجهل، والأحكام المسبقة، والروايات التاريخية الناقصة، والدعاية الإعلامية، والتصورات الخاطئة عن المذهب الآخر. وعندما يحكم الأفراد على أتباع المذهب الآخر انطلاقاً من القوالب النمطية والروايات العدائية، تتهيأ الأرضية لسوء الظن وانعدام الثقة. ولتصحيح هذا الوضع، لا بد من التعليم الصحيح لأصول المذاهب الإسلامية. وينبغی للمسلمين أن يتعرفوا إلى معتقدات بعضهم وتاريخهم وحساسياتهم وهواجسهم من خلال المصادر الأصيلة والمباشرة، وأن يبتعدوا عن الروايات المحرفة. ويمكن للحوار العلمی المحترم أن يزيل كثيراً من حالات سوء التفاهم. كما تتحمل وسائل الإعلام والنخب الثقافية مسؤولية خاصة فی هذه العملية؛ إذ يستطيع الإعلام، بدلاً من إعادة إنتاج الاختلاف وإبراز السلوكيات المتطرفة، أن يعرض نماذج التعاون والتعايش الإيمانی بين المسلمين.

٣ـ٢. احترام المقدسات ومنع الإهانة

لا يشكل الاختلاف المذهبی مبرراً لإهانة رموز أتباع المذاهب الأخرى ومقدساتهم. فإهانة المقدسات تجرح المشاعر الدينية والعواطف الوجدانية لملايين المسلمين، وتولد ردود أفعال متسلسلة وعدائية. ويعد ازدياد الأحقاد، وانهيار الثقة، وتعزيز التيارات المتطرفة، وتهيئة المجال لاستغلال أعداء الأمة الإسلامية، من النتائج الحتمية لهذه السلوكيات.

وفی هذا الإطار، حرم الإمام الخامنئی الشهيد (قدس سره) صراحة إهانة مقدسات أهل السنة ورموزهم المذهبية، وأعلن منع كل ما من شأنه إثارة المشاعر المذهبية وتعميق الخلافات (الإمام الخامنئی الشهيد قدس سره، ١٣٨٨/٠٢/٢٣هـ‌ش). ويرى سماحته ضرورة ضبط السلوكيات الاستفزازية على المنبر وفی وسائل الإعلام والفضاء الافتراضی؛ لأن هذه السلوكيات تخدم مباشرة مؤامرة العدو، وتتعارض مع مصالح الأمة الإسلامية وأصل أخوة المؤمنين (الإمام الخامنئی الشهيد قدس سره، ١٣٩۴/٠٥/٢۶هـ‌ش).

وهنا تبرز أهمية مفهوم «ضبط النفس الدينی»؛ أی أن يضع الفرد أو التيار الفكری، حتى عند ممارسة النقد العلمی، العقلانية والمصالح العامة للأمة نصب عينيه، وأن يتجنب هدم معتقدات الآخرين والحط منها.

٣ـ٣. التعاون العملی فی القضايا المشتركة للأمة الإسلامية

ينبغی ألا تقتصر الوحدة على التعايش السلبی أو مجرد تحمل بعضنا بعضاً، بل يجب أن تفضی إلى تعاون فعال فی القضايا التی يرتبط بها مصير العالم الإسلامی بأسره. وتعد قضية فلسطين، ومواجهة النظام الصهيونی، ومكافحة الفقر والجهل، والدفاع عن كرامة الشعوب المسلمة واستقلالها، ومواجهة التيارات المتطرفة، والوقوف فی وجه الهيمنة الاستكبارية العالمية، من أبرز مجالات هذا التعاون العملی.

كما يمكن للتعاون فى المجالات العلمية والثقافية والتكنولوجية والإعلامية أن يعزز الروابط بين الشعوب المسلمة. وتشكل الندوات العلمية، والإنتاجات الإعلامية المشتركة، والتواصل المستمر بين نخب المذاهب، أرضية لتضافر الطاقات والتعاطف المستدام.

٤. . عوائق التقارب وآفات العلاقات التفرقة

تتشكل التفرقة عادة قبل أن تظهر فى صورة نزاع علنى وعنف عسكرى، وذلك فى اللغة، والذهنيات، والأحكام المسبقة، وطريقة تواصل الأفراد. ومن أهم عوائق التقارب: التعصب المذهبى، والتكفير، وإهانة المقدسات، والعصبيات القومية والوطنية، والدعاية السلبية، وضعف التعاون.

۴ـ١. التعصب المذهبى

ينشأ التعصب عندما يحول الفرد أو الجماعة انتماءه المذهبى إلى معيار لنفى الآخرين ولعنهم واحتقارهم. وفى مثل هذه الظروف، يخرج الاختلاف العلمى عن مسار الحوار ويتحول إلى عداوة اجتماعية. ويعد وضع الملصقات، ونسبة المعتقدات الخاطئة والمحرفة إلى أتباع المذاهب الأخرى، وتجاهل نقاط الاشتراك الكثيرة، من النتائج الضارة لهذا التعصب.

ولا تعنى الوحدة نفى المعتقدات المذهبية؛ فعلى الشيعى أن يبقى على مذهبه، وعلى أهل السنة أن يبقوا على مذهبهم، غير أن هذه الهويات المذهبية ينبغى ألا تفضى إلى التنازع والعداوة الداخلية (الإمام الخامنئى الشهيد قدس سره، ١٣٩٩/٠٨/١٣هـ.ش). فالمسألة الأساسية ليست وجود التنوع، بل التعامل غير السليم وغير العقلانى معه.

۴ـ٢. التكفير والعنف المذهبى

يمثل التكفير أشد أشكال نفى «الآخر» فى المجتمع الإسلامى. فعندما يعد مسلم خارجاً عن دائرة الإسلام بسبب اختلافه فى الفروع أو فى بعض التصورات الكلامية، تصبح حرمة دمه وماله وعرضه وحقوقه الاجتماعية عرضة للتهديد. ويشكل التكفير تمهيداً مباشراً للعنف والإرهاب وسفك الدماء وتدمير رأس المال الاجتماعى فى العالم الإسلامى.

وقد شكلت التيارات التكفيرية خلال العقود الأخيرة نموذجاً بارزاً لاستغلال أعداء المسلمين الشروخ المذهبية من أجل إشعال الحروب الداخلية فى البلاد الإسلامية (الإمام الخامنئى الشهيد قدس سره، ١٣٩٩/٠٩/٠۴هـ.ش). وقد استنفدت هذه التيارات، من خلال تقديم تفسير إقصائى وعنيف للدين، طاقات الأمة الإسلامية فى الاقتتال الداخلى بدلاً من توجيهها إلى مكافحة الصهيونية. ومن ثم، فإن مكافحة ظاهرة التكفير بصورة شاملة ونفى أسسها الفكرية مسؤولية عامة وضرورة عاجلة تقع على عاتق علماء الفريقين.

۴ـ٣. الإهانة والعصبية القومية والدعاية التفرقة

تسهم إهانة الرموز المذهبية، وإثارة التعصبات اللغوية والعرقية، ونشاط وسائل الإعلام التفرقة، بما فيها التشيع اللندنى والتسنن الأمريكى/الوهابى، فى تدعيم جدران انعدام الثقة بين المسلمين (الإمام الخامنئى الشهيد قدس سره، ١٣٩٩/٠٧/٢١هـ.ش). وتعمل هذه العوامل على إخضاع الهويات الفرعية والتعصبات الجاهلية للهوية الإسلامية الكبرى.

ولإزالة هذه العوائق، لا بد من تعزيز الخطاب التقريبى فى المنابر، وتنقية النصوص، ونشر أخلاقيات النقد والمناظرة العلمية عملياً فى الحوزات والجامعات.

الخاتمة

تتشكل الوحدة الإسلامية على أساس الهوية التوحيدية واشتراك المسلمين فى أمة واحدة. وتؤكد الآيات القرآنية الصريحة، مثل آيات الأنبياء: ۹۲، والحجرات: ۱۰ و۱۳، وآل عمران: ۱۰۳، وحدة الأمة، والأخوة الإيمانية، والاعتصام الجماعى بحبل الله، ونفى التفاخر القومى. ومن هذا المنظور، يشترك المسلمون، على الرغم من اختلافاتهم الاجتهادية، فى أصول الدين الأكثر أساسية، ويشكلون كلاً مترابطاً.

وليست الوحدة تكتيكاً سياسياً مؤقتاً، ولا تعنى ذوبان المذاهب بعضها فى بعض؛ بل هى أصل قرآنى، وحكم شرعى، وضرورة واقعية لعزة الأمة الإسلامية واقتدارها. كما أن التعدد الاجتهادى والعلمى، إذا جرى فى إطار الأخلاق والإنصاف، سيكون عاملاً فى حيوية الفقه والفكر الإسلامى. وما يعرّض علاقات المسلمين للأزمة هو التعصب الجاهل، والتكفير، وإهانة المقدسات، والاستسلام للمخططات الاستعمارية التفرقة.

ويتوقف تحقق العلاقات الاجتماعية الوحدوية على أن يصل المسلمون إلى معرفة مباشرة وغير وسيطة بعضهم ببعض، وأن يزيلوا التصورات السلبية والأحكام المسبقة، وأن يصونوا حرمة مقدسات بعضهم بعضاً، وأن يتكاتفوا فى القضايا المصيرية للعالم الإسلامى، ولا سيما قضية تحرير القدس الشريف ومكافحة الاستكبار. وفى هذا السياق، تقع على عاتق المراجع العظام، والعلماء الأعلام، والنخب الجامعية، وأصحاب وسائل الإعلام مسؤولية جسيمة تتمثل فى تحويل تعاليم الوحدة من خطاب فى تحويل تعاليم الوحدة من خطاب نخبوى إلى أسلوب حياة ومعيار م المصادر والمراجع

۱. القرآن الكريم.

۲. الخمينى، السيد روح الله، صحيفة النور «الإمام»: البيانات، والرسائل، والمقابلات، والأحكام، والإجازات الشرعية، والرسائل، فى ۲۲ مجلداً، الطبعة الخامسة، طهران: مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخمينى (قدس سره)، ۱۳۸۹هـ.ش.

۳. الطباطبائى، السيد محمد حسين، الميزان فى تفسير القرآن، فى ۲۰ مجلداً، بيروت: مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ۱۳۹۰هـ.ق.

۴. الخامنئى، السيد على (۱۳۸۸/۰۲/۲۳هـ.ش)، «بياناته فى الاجتماع الجماهيرى الكبير لأهالى مريوان وطلبة العلوم الدينية ورجال الدين الشيعة والسنة فى محافظة كردستان»، الموقع الإعلامى لمكتب حفظ ونشر آثار سماحة آية الله العظمى الخامنئى (KHAMENEI.IR).

۵. الخامنئى، السيد على (۱۳۹۳/۰۷/۲۱هـ.ش)، «بياناته فى لقاء مختلف فئات الشعب بمناسبة عيد الغدير السعيد»، الموقع الإعلامى لمكتب حفظ ونشر آثار سماحة آية الله العظمى الخامنئى (KHAMENEI.IR).

۶. الخامنئى، السيد على (۱۳۹۳/۰۹/۰۴هـ.ش)، «بياناته فى لقاء المشاركين فى المؤتمر العالمى للتيارات المتطرفة والتكفيرية من وجهة نظر علماء الإسلام»، الموقع الإعلامى لمكتب حفظ ونشر آثار سماحة آية الله العظمى الخامنئى (KHAMENEI.IR).

۷. الخامنئی، السید علی المجمع العالمی لأهل البیت واتحاد الإذاعات والتلفزیونات الإسلامیۀه فی لقاء أعضاء المجمع العالمی لأهل البیت واتحاد الإذاعات والتلفزیونات الإسلامیۀ»، الموقع الإعلامی لمکتب حفظ ونشر آثار سماحۀ آیۀ الله العظمی الخامنئی (KHAMENEI.IR).

۸. الخامنئی، السید علی (۱۳۹۹/۰۸/۱۳هـ.ش)، «خطابه التلفزیونی بمناسبۀ ذکری ولادۀ الرسول الأعظم والإمام جعفر الصادق»، الموقع الإعلامی لمکتب حفظ ونشر آثار سماحۀ آیۀ الله العظمی الخامنئی (KHAMENEI.IR).

۹. الخامنئی، السید علی (۱۴۰۳/۰۶/۲۶هـ.ش)، «بیاناته فی لقاء جمع من العلماء وأئمۀ الجمعۀ وکبار أهل السنۀ فی أنحاء البلاد»، الموقع الإعلامی لمکتب حفظ ونشر آثار سماحۀ آیۀ الله العظمی الخامنئی (KHAMENEI.IR).

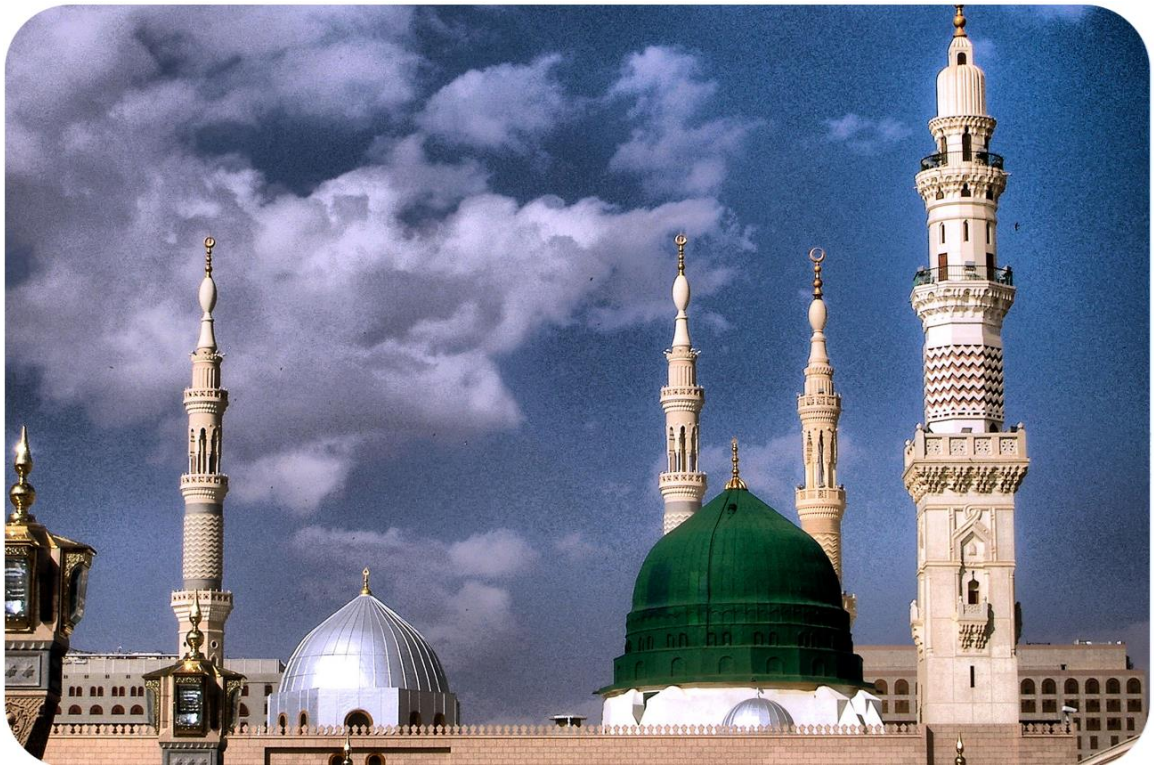

أهمية الوحدة الإسلامية فى ضوء القرآن والحديث

لقد أولت آيات القرآن والروايات الإسلامية أهمية كبيرة لاتحاد المسلمين، ولقيمة التعاون والتكامل بينهم، كما ذمّت بشدة تشتتهم وتفرقهم. ويعلمنا القرآن ما هو سر وحدتنا، وإلى أى أصل تمتد جذور الأخوة الإسلامية، وكيف يحيط بنا الذل والضعف، ويذهب بقيمتنا ومكانتنا، إذا ابتلينا بالخلاف والفرقة.

ونحن نعلم يقينا أنه إذا تجمعت القوى اللازمة والمتصلة بإيجاد أمر مقصود وتركزت، كان تحقق ذلك الأمر وظهوره فى الواقع أيسر وأفضل.

فلو أريد، مثلا، تأليف موسوعة كبيرة وشاملة حول عظمة الثورة الإسلامية وأبعادها، بكل ما حفلت به من مفاجآت وأحداث مدهشة، أو كتابة تاريخ ناطق يستوعب جميع تضحيات الامة الإسلامية فى إيران وتفانيها؛ فإن هذا العمل يمكن أن ينجز بطريقتين:

الأولى: أن ينهض فرد أو أفراد، كل منهم بمفرده ومنفصلا عن الآخرين، بهذا العمل الجليل والكبير.

والثانية: أن يتعاون الكتّاب والباحثون، وأن يجمعوا طاقات الخبراء وأصحاب التجربة، فى ظل تركيز القدرة الفكرية والعلمية، ليخرجوا بذلك العمل الكبير والتاريخى.

ولا ريب أن إنجاز العمل بصورة جماعية، وإيجاد مركزية قوية مقرونة بالتنسيق اللازم، يجعلنا أقدر وأكثر نجاحا فى الوصول إلى ذلك الهدف الكبير.

وبطبيعة الحال، كما أن الوحدة وتركيز القوة يجعلاننا أقوياء وناجحين فى بلوغ الآمال والأهداف المقدسة، فإن التفرق والخلاف يستنزفان قوانا ويوقعاننا فى الضعف والهوان. وما أجمل ما قاله الشاعر:

مئات الآلاف من الخيوط المنفردة لا قوة لها

ولكن إذا فتل الحبل، لم يستطع إسفنديار أن يقطعه!

الإسلام وأصل الاتحاد والتكامل

لما كان لاتحاد الامة الإسلامية دور بالغ الفاعلية والتأثير فى حياتها الاجتماعية والسياسية، وكان المسلمون قادرين فى ظله على بلوغ كل هدف عظيم وكل عمل كبير يريدونه بعزة ونجاح، فإن القرآن المجيد يلفت أنظارهم إلى الماضى المرير من التاريخ، أى إلى ما قبل ظهور الإسلام، حين كانوا يحترقون فى ظلمات الجهل ونيران الاختلاف. كما يذكرهم بأنه، حين أشرقت شمس الإسلام الساطعة من أفق الجزيرة العربية، ونالوا نعمة الأخوة الإسلامية، استطاعوا النجاة من الهلاك والفناء.

يقول القرآن الكريم فى هذا الشأن:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [١]

إن القوم الذين كانوا محرومين من الحضارة والثقافة والآداب الإنسانية، لما احتموا بالإسلام والقرآن، أسسوا - بالاتحاد والتكامل - دعائم مجتمع جديد متحرك وحيوى، فأضاء نجم إقبالهم اللامع عيون العالمين المظلمة، وبعث الأمل فى قلوبهم الكئيبة اليائسة.

فبدلا من الصراع والخلاف فيما بينهم، اتجهوا إلى الوحدة والأخوة؛ وبدلا من سفك الدماء وقتل الناس، اتجهوا إلى السلام والعدالة الاجتماعية؛ وبدلا من الجهل والأنانية، اتجهوا إلى العلم وحب الإنسانية. ولذلك أضاءوا، فى فترة قصيرة، العالم الغارق فى الظلمات والهمجية بنور العلم ومعارف القرآن والأخلاق الإسلامية.

ويعلمنا كتابنا السماوى، القرآن الكريم، ما سر وحدتنا، وإلى أى أصل تمتد جذور الأخوة الإسلامية، وكيف يحيط بنا الذل والضعف ويذهب بقيمتنا ومكانتنا إن ابتلينا بالخلاف والتفرق، إذ يقول تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٢]

أطيعوا الله ورسوله، ولا تتنازعوا وتختلفوا أبدا، فتقعوا فى الفشل والعجز، وتذهب عزتكم وعظمتكم. واصبروا وثابروا، فإن الله مع الصابرين.

ويدل التأمل فى هذه الآية بوضوح على أن سر وحدة المسلمين، والدافع إلى اتحادهم الإسلامى، يكمنان فى طاعة الله ورسوله، وأن بلوغ هذه المرتبة من الكمال والوعى الدينى لا يتيسر إلا فى ظل الصبر والثبات والتحلى بالقدر اللازم من الاحتمال.

ومن حسن الحظ أن آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية قد أولت أهمية بالغة لاتحاد المسلمين وقيمة تعاونهم وتلاحمهم، كما ذمت بشدة تشتتهم وتفرقهم.

وقد ورد عن النبى الأكرم (ص) فى حديث شريف أنه قال: «والزموا السواد الأعظم، فإن يد الله على الجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب» [٣].

والمعنى: الزموا عامة المسلمين وجماعتهم؛ فإن يد عون الله وقدرته مع الجماعة، واحذروا التفرقة والاختلاف؛ فكما أن الشاة المنفردة والبعيدة عن القطيع تكون فريسة للذئب، فإن الإنسان المنعزل عن المجتمع الإسلامى والمنفصل عن جماعة المسلمين سيكون طعمة للشيطان.

أكبر عوامل النصر

على الرغم من تعدد العوامل المؤثرة فى تقدم المسلمين والانتصار الخاطف والسريع للإسلام، إلا أن اتحادهم وأخوتهم فيما بينهم كانا العامل الأهم والأكثر تأثيرا من بين جميع أسباب نجاح المسلمين وتوسع رقعة الإسلام المذهل. فقد بلغ المسلمون، فى ظل الإيمان بالله والتعاليم الحياتية للإسلام، درجة من الوحدة والانسجام كأنما هم روح واحدة فى أجساد متعددة، وكأن الكل واحد والواحد كل.

وكان المسلمون، بوحى من القرآن الكريم واقتداء بسيرة النبى الأكرم، يقدمون مصالح الأمة والمجتمع الإسلامى على مصالحهم الفردية، ويحبون لإخوانهم فى الدين ما يحبون لأنفسهم [٤].

فإذا مس الضر أحدا منهم استشعر الجميع ذلك الألم، وإذا أنعم الله على مسلم بنعمة عمت الفرحة والبهجة قلوب الجميع [٥].

وقد بلغ النضج السياسى والاجتماعى لدى المسلمين، وإيثارهم وتفانيهم، مبلغا أثار دهشة الآخرين وإعجابهم. وحين ارتقى المسلمون إلى هذا المستوى من الوعى الاجتماعى وروح الإيثار والأخوة الإسلامية، استطاعوا بسهولة الصمود فى وجه القوى الكبرى فى عالم ذلك الزمان، ورفعوا راية العدل الإسلامى فى كثير من البلدان المجاورة.

إن الدور الفاعل للوحدة والأخوة الإسلامية فى تلك الانتصارات الباهرة كان محل عناية واعتراف كثير من الباحثين والمستشرقين الغربيين المعنيين بالقضايا الإسلامية وتاريخ الحضارة الإسلامية؛ ولو أردنا نقلها جميعا لطال بنا المقام جدا، لكننا نكتفى بإيراد عبارة مقتضبة لـ«غوستاف لوبون» فى هذا الشأن، حيث يقول:

«... ولما دخلوا (المسلمون) فى الإسلام اجتمعوا كلهم تحت لواء التوحيد، ووجهوا قواهم كلها نحو الأجانب، وكان هذا هو السبب الرئيس فى تقدمهم ونجاحهم...» [٦].

إن الاتحاد والأخوة الإسلامية اليوم أشد ضرورة للمسلمين من أى وقت مضى، ولهما دور حيوى وحاسم فى نيل حريتهم واستقلالهم. وإذا كانت للأمة الإسلامية فى ماضى تاريخها تلك السيادة والعظمة، حتى امتدت أشعة شمس الإسلام فى أقصر مدة زمنية ممكنة إلى أفق البلدان الأوروبية وبعض الممالك الغربية كما أسلفنا، فإن مرد ذلك كله كان إلى الوحدة الإسلامية وتماسك المسلمين.

أما اليوم، فإن وقوع المسلمين فى أسر الاستعمار الغربى والشرقى، وبسط الاستكبار العالمى ظلال هيمنته المشؤومة عليهم، وسلبهم كل أشكال الحرية والسيادة الوطنية والدينية، إنما هو وليد الخلاف والتشتت فى هذه الأمة العظيمة، وثمرة لعدم التنسيق وتفرق الآراء فيما بينها.

ولو أراد مسلمو العالم اليوم، فإن بمقدورهم، من خلال القواسم المشتركة الكثيرة التى تجمعهم، الوصول إلى الوحدة والأخوة الإسلامية تماما كتلك الأيام المشرقة فى صدر الإسلام، واستعادة مجدهم وسيادتهم الضائعة من جديد.

ولو نحى حكام الدول الإسلامية اليوم أطماعهم الذاتية وأنانياتهم جانبا، وتحرروا من قيود التبعية للاستعمار، وأقبلوا بصدق على الإسلام والقرآن، لتمكنوا من الدفاع عن مصالح الأمة الإسلامية فى المحافل الدولية والمنظمات العالمية، ولما وقع مسلمو العالم تحت وطأة الاستعمار والصهيونية الدولية على هذا النحو... ولكن وا أسفاه!

وا أسفاه؛ إذ إنهم بدلا من تعزيز التضامن الإسلامى، لا يكتفون بمد حبال الود إلى الصهيونية والإمبريالية الغربية والشرقية، بل يقدمون فروض الطاعة والتبعية لهما، ولا يبدون أى استعداد لاتخاذ خطوة نحو الوحدة والأخوة الإسلامية. وما أروع ما قاله ذلك العبقرى الفذ ورائد الوحدة الإسلامية «السيد جمال الدين الأسد آبادى» فى هذا المعنى:

«اتحادهم على الاختلاف، واختلافهم على الاتحاد، فقد اتحدوا أن لا يتحدوا»!

الهوامش:

[١] سورة آل عمران، الآية ١٠٣ *(تصويب: الآية المذكورة فى النص هى ١٠٣ وليست ١٠٢)*.

[٢] سورة الأنفال، الآية ٤٦ *(تصويب: الآية الكريمة رقم ٤٦ وليست ٤٨)*.

[٣] سفينة البحار، ج ٢، ص ٣٦٠.

[٤] أمير المؤمنين على (ع) فى وصيته لابنه الإمام الحسن (ع): «يا بنى، اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها...»، نهج البلاغة، تحقيق صبحى الصالح، الرسالة ٣١، ص ٣٩٧ (ترجمة فيض الإسلام، ص ٩١٢).

[٥] كانت هذه الخصلة بارزة فى المسلمين إلى حد ركز عليه المؤرخون كثيرا؛ وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». ينظر: داستان راستان، ج ٢، ص ١٤١؛ وصحيح مسلم، ح ٢٥٨٦.

[٦] حضارة العرب (تمدن اسلام و عرب)، غوستاف لوبون، ص ٧٩٠.

تصحيح أرقام الآيات فى الهوامش: آية «واعتصموا...» رقمها ١٠٣ من سورة آل عمران وليس ١٠٢، وآية «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا...» رقمها ٤٦ من سورة الأنفال وليس ٤٨.

تصحيح الأخطاء المطبعية الواردة فى متن الروايات الفارسية (مثل: "مثل المومنون می توادهم..." إلى النص الحديثى الصحيح: "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم...").

ضبط مصطلح "السواد الأعظم" وفق الاستعمال الروائى الفصيح للحديث.

مقاربة التفسير لقضية الوحدة الإسلامية (بالاعتماد على تفاسير الفريقين)

تعد الوحدة من المقولات التى دخلت الثقافة الدينية للبلدان الإسلامية منذ زمن بعيد، واكتسبت بالتدريج مكانة متميزة؛ إذ أولاها علماء الشيعة وأهل السنة ومفكروهم عناية خاصة، لا سيما خلال القرون الأخيرة. كما يولى القرآن الكريم مسألة الوحدة الإسلامية اهتماما بالغا؛ فمن جهة يبين الآثار الإيجابية للاتحاد، وفى سياق بيان قيمته ومكانته، فضلا عن حديثه عن الاتحاد بوصفه نعمة كبرى جديرة بالاهتمام والذكر، يطالب المؤمنين بالسعى إلى حفظه من خلال استذكار مرارة حقب التفرقة والاضطراب؛ ذلك أن الاتحاد بين الأمة المؤمنة إنما تشكل وتحقق بمشيئة الله وإرادته. ومن جهة أخرى، يحذر القرآن من العواقب المشؤومة للاختلاف، إذ لا ريب فى أن الاختلاف والتفرق كانا من أهم عوامل انحطاط الحضارات والمجتمعات البشرية والأمم الدينية وانهيارها.

وعلى هذا الأساس، تكرر طرح موضوع الوحدة والتفرقة والنزاع فى القرآن، مع التذكير بعوامل الوحدة وأسباب الفرقة. ويشتمل هذا البحث على دراسة مفهوم الوحدة الإسلامية وماهيتها، ورؤية كبار علماء الشيعة وأهل السنة إليها، وأبرز آيات الوحدة، ودراسة الآفات والعوائق التى تعترض سبيلها.

طرح المسألة

تعد الوحدة والاتحاد فى الدين الإسلامى من المفاهيم المقدسة، ولعل هذا المفهوم من أكثر المفاهيم السياسية ورودا فى القرآن المجيد. فقد بينت آيات قرآنية متعددة مسألة الاتحاد وضرورة التصدى لكل أشكال التفرقة، ولعل الآية ١٠٣ من سورة آل عمران من أهم الآيات الدالة على ذلك. كما يشهد التاريخ بوجود شخصيات كثيرة سعت قولا وعملا لتحقيق وحدة كلمة المسلمين.

وقبل الجميع، بذل النبى الأكرم (ص) عناية خاصة فى دعوة المسلمين إلى الوحدة والاتحاد الإسلامى الشامل، مع نبذ أى خلاف تحت أى ذريعة أو شعار. وكذلك تصدى أئمة المسلمين وكثير من علماء الشيعة وأهل السنة - عبر مؤلفاتهم ومواقفهم وأقوالهم فى المنعطفات الحساسة - لبذور الخلاف، ومهدوا لترسيخ التفاهم والوحدة والتقارب والتعاون داخل المجتمع الإسلامى.

ومن ذلك، على سبيل المثال، تصنيف كتاب «الخلاف» على يد الشيخ الطوسى (محمد بن الحسن الطوسى)، الذى جمع فيه آراء علماء الفريقين ومناهجهم الفقهية فى استنباط الأحكام خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين بتجرد ودون تعصب، مما يجسد سيرة كبار علماء الدين واهتمامهم بهذه القضايا.

وكذلك نجد شخصيات كالشيخ الطبرسى، الذى اقترح العلامة الراحل الشيخ محمود شلتوت تفسيره «مجمع البيان» لدار التقريب بوصفه من أفضل التفاسير، فطبع بهوامش لعلماء الأزهر الشريف وقدم بوصفه تفسيرا جامعا لجميع المذاهب الإسلامية.

ومن ثم، يتضح أن أصل الوحدة والاتحاد ليس موضوعا يتناوله الباحث لأول مرة؛ فقد أقبل عليه الباحثون والمحققون وعلماء الفريقين وصنفوا فيه مؤلفات شتى، وعقدت لأجله مؤتمرات عديدة فى شتى البلدان الإسلامية. غير أن هذا البحث يعنى بتبيين موضوع الوحدة الإسلامية من منظور تفاسير الفريقين، وتوضيح علاقته بظاهرة الاختلاف على ضوء الآيات ذات الصلة.

مفهوم وماهية الوحدة

أ) الوحدة فى اللغة

تعد مادة «و ح د» من أكثر الجذور اللغوية العربية ثراء ودلالة، وهى من الألفاظ الجديرة بالتأمل. وقد استعملتها المعاجم اللغوية فى معنى واحد، هو: الواحدية والتفرد والوحدانية؛ وقد اتفق اللغويون على هذا المعنى.

ب) مفهوم الوحدة وماهيتها

يرتبط مفهوم الوحدة ارتباطا وثيقا بلفظ «الاتحاد»، ولذلك استعان كثير من العلماء، فى بيان مفهوم الوحدة، بشرح معنى الاتحاد وتفسيره.

ومن الجدير بالذكر أن لفظ الاتحاد يمكن تصوره على نحوين: حقيقى ومجازى. فالـاتحاد الحقيقى هو تحول شيئين إلى شىء واحد، غير أن تحقق هذا النحو من الاتحاد فى الخارج محال. أما الاتحاد المجازى، فيراد به تحول شىء إلى شىء آخر، وهو على قسمين:

١. أن ينشأ من انضمام شىء إلى شىء آخر أمر ثالث؛ كما إذا امتزج التراب بالماء فتحول إلى طين.

٢. أن يكتسب الشىء صورة جديدة من غير أن يمتزج بشىء آخر؛ كتحول الماء إلى بخار بفعل الحرارة.

أما الاتحاد فى الاصطلاح السياسى، فهو اندماج دولتين أو أكثر، وقبولها نظاما سياسيا وعسكريا واقتصاديا موحدا، بحيث يطلق عليها بعد ذلك اسم أمة واحدة أو دولة واحدة.

وقد تناول القرآن الكريم قضية الوحدة والاتحاد من زاويتها الاجتماعية، فأكد أهمية الاتحاد بين الناس والأديان والمسلمين، وكذلك داخل مؤسسة الأسرة. وعليه، فالمراد بالاتحاد الإسلامي هو تضامن جميع المسلمين وتكاتفهم، مع حفظ هويتهم المذهبية، في مواجهة أعدائهم المشتركين.

تعريفات الوحدة من منظور كبار علماء الشيعة وأهل السنة

قدم كبار علماء الشيعة وأهل السنة تعريفات متعددة للوحدة، ومن ذلك ما ذكره العلامة الأميني في مقدمة كتابه «الغدير»، إذ يقول:

«إن العقائد والآراء في شأن وحدة المذاهب حرة، وهي لا تقطع أبدا رابطة الأخوة الإسلامية التي صرح بها القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾... وإن روحا واحدة وعاطفة واحدة تسودنا جميعا، وهي روح الإسلام وكلمة الإخلاص».

كما عرف أحمد أمين المصري، أحد كبار علماء أهل السنة، الوحدة بقوله:

«إن الوحدة تعني التوجه إلى المشتركات بين فرقتين أو قومين والتمسك بها. ومن المؤسف حقا أن يثور النزاع والافتراق بين الشيعة وأهل السنة في مسائل جزئية، مع ما يجمعهم من الإيمان بإله واحد، ونبي واحد، وكتاب واحد».

أما العلامة الشيخ محمود شلتوت، فقد بين رؤيته لوحدة المسلمين فقال:

«إن اختلاف الرأي والنظر أمر اجتماعي طبيعي لا يمكن التخلص منه، ولكن هناك فرق بين اختلاف ينشأ عن التعصب المذهبي والجمود الفكري من غير دليل ولا منطق، واختلاف يستند إلى وجه ودليل. فالأول اختلاف مذموم، والثاني اختلاف منصف يقترن باحترام الفرق بعضها لبعض، وباحترام الجميع للأصول الجامعة بينهم، من مصادر الإسلام الأولى وقواعده الأساسية. وهكذا كان شأن الأئمة السابقين؛ فعلى الرغم من اختلافهم، كان بعضهم يحترم بعضا، ويعذر بعضهم بعضا، وينتفع بعضهم من علم بعض. ومن ثم، فليس المقصود من الوحدة دعوة الناس إلى مذهب معين، ولا إدماج المذهب الشيعي في المذهب السني أو المذهب السني في المذهب الشيعي، وإنما الغاية أن تسارع الطوائف الإسلامية المختلفة إلى معاونة بعضها بعضا على أساس المحبة».

وأخيرا، قدم الشيخ محمد عاشور، نائب رئيس جامعة الأزهر في مصر ورئيس لجنة الحوار بين المذاهب الإسلامية، رؤية منطقية رصينة، فقال:

«إن المقصود من فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية ليس توحيد المذاهب جميعا، ولا الانصراف عن مذهب والإقبال على مذهب آخر؛ فإن ذلك انحراف بفكرة التقريب عن مسارها. وإنما ينبغي أن يقوم التقريب على أساس البحث العلمي والقبول العلمي، حتى يمكن مواجهة الخرافات بهذا السلاح. كما ينبغي لعلماء كل مذهب أن يتبادلوا معارفهم في حوار علمي هادئ، ليعرفوا ويبينوا ويستنتجوا».

وفي الواقع، فإن التقريب بين المذاهب يفضي إلى وحدة الكلمة وقيام الأمة الواحدة، وهما أصلان أكد القرآن الكريم الدعوة إليهما كثيرا.

بتأمل كل واحد من هذه التعريفات يتبين لنا أن لكل منها دلالات مرنة ومفاهيم مختلفة قابلة للتأويل. غير أن التعريف الأرجح، ولعله الأكثر وجاهة وشيوعا، للوحدة هو: وحدة أتباع المذاهب الإسلامية بمعنى تعايشهم القائم على المودة وحسن النية تجاه بعضهم بعضا؛ أو بعبارة أخرى: التآلف والتوافق والتقارب الإسلامي.

وبمقتضى هذا التعريف، يقف أتباع المذاهب الإسلامية إلى جانب بعضهم بعضا، مع حفاظ كل منهم على هويته المذهبية والتأكيد عليها. وهذا هو المفهوم المتداول للوحدة الإسلامية، كما يتضح عند مقارنته بسائر تعريفاتها، ولا سيما التعريفات المغايرة له.

وقد تبنى الإمام الخمينى، قائد الثورة الإسلامية، هذه الرؤية العامة، ومفادها أنه لا توجد ضرورة تقتضى أن يمتنع المسلمون - من أجل الوحدة الإسلامية - عن البحث والاستدلال والمناقشة فى الأصول والفروع المختلف فيها فيما بينهم، أو أن يتنازلوا عنها أو يصالحوا بشأنها. ذلک أن ما تقتضيه الوحدة الإسلامية فى هذا المجال إنما هو أن يحافظ المسلمون على رصانتهم، كيلا تتأجج بينهم مشاعر الحقد والضغينة، وألا يسب بعضهم بعضا، ولا يتراشقوا بالتهم، إلى غير ذلک؛ أى أن يلتزموا فيما بينهم بالحدود والآداب التى أوجبها الإسلام عند دعوة غير المسلمين إليه، قال تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّکَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(النحل: ١٢٥)

ويتضح مما سبق أن المراد بوحدة الأمة الإسلامية ليس أن تمتنع كل طائفة عن البحث أو عن بيان موقفها العقدى والفقهى، وفق منهج «التى هى أحسن». وإنما المقصود هو أن تتعرف الفرق الإسلامية إلى بعضها بعضا تعريفا صحيحا، وأن تطلع بوعى ومعرفة على المواقف الفكرية والعقدية المتبادلة، وأن تكف - حفاظا على كيان الإسلام وأساسه وتعزيزا له - عن ذلک النزاع الذى نهى عنه القرآن الكريم مرارا.

كما ينبغى للمسلمين أن يكونوا أمة متحدة، وشعبا متماسكا، وصفا واحدا، فى الدفاع عن حرمة القرآن الكريم والأصول الإسلامية الثابتة والمشتركة، فى مواجهة أعداء الإسلام الملحدين والمناوئين له. وهذه سيرة وسنة أكد عليها الأئمة الأطهار والخلفاء والقادة السياسيون والعباديون، ومارسوها فى الواقع أيضا.

دراسة آيات الوحدة من منظور المفسرين

يمكن تقسيم آيات القرآن الكريم المتصلة بموضوع الوحدة إلى قسمين عامين:

١. آيات تشير إلى وحدة الأديان على نطاق واسع.

٢. آيات تتناول وحدة الأمة الإسلامية.

والمقصود فى هذا البحث هو القسم الثانى من الآيات، المتعلق بوحدة الأمة الإسلامية، والذى ستتم دراسته على النحو الآتى.

الآيات الدالة على وحدة الأمة الإسلامية

١. الآيات التى تؤكد على الوحدة مباشرة

أ) آية الاعتصام:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِکَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

تعد هذه الآية الكريمة من أهم الآيات المتعلقة بالوحدة، وهى تحتمل وجوها تفسيرية متعددة. يدعو الله تعالى فيها المسلمين إلى جوهر العقيدة الإسلامية، المتمثل فى التوحيد والاجتماع فى سبيله سبحانه، وجعل الاعتصام بحبله وسيلة لتحقيق هذه الوحدة.

وفى لفظ «الاعتصام» - المشتق من العصمة - لطيفة بيانية؛ إذ يشير إلى أن قوام الدين وثباته إنما يتحققان بالاستمساك بـ «حبل الله»، الذى هو شريعته الإلهية وكتابه السماوى.

ويؤكد النهى فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ هذا المعنى؛ أى لا تسلكوا سبلا متفرقة، بل توجهوا إلى قبلة واحدة، واجعلوا غايتكم واحدة، واسلكوا الطريق الذى رسمه القرآن الكريم وأمر به النبى الأكرم (صلى الله عليه وآله).

وقوله ﴿وَاعْتَصِمُوا﴾ يفيد الاستمساك، والخطاب فيه موجه بصيغة الجمع إلى الأمة الإسلامية جمعاء. وبالنظر إلى الآيات السابقة التى تناولت إثارة الفتن وتفريق صفوف المسلمين من قبل أهل الكتاب، فإن مقتضى السياق أن يكون المراد بـ «حبل الله» هو دين الإسلام، بوصفه رسالة عالمية توافق العقل والفطرة الإنسانية. ومن الجلى أن «حبل الله» - سواء فسر بالإسلام أم بالقرآن - لا يختص بزمان ولا مكان، ولا بفئة أو طائفة معينة؛ فكما يستنقذ الإنسان نفسه من الهلاك بالتشبث بالحبال المادية، فكذلك لا نجاة من خطر السقوط والضياع إلا بالتمسك بالقرآن والإسلام.

ويظهر من مراجعة تفاسير الشيعة وأهل السنة اتفاق المفسرين على جوهر هذا المعنى، وإن تعددت الأوجه والأنظار فى تعيين مصداق «حبل الله»؛ فمن قائل إنه القرآن، ومن قائل إنه الإسلام، ومن ذاهب إلى أنه العترة النبوية والأئمة المعصومون. وتطالعنا هذه التعبيرات المتنوعة أيضا فى الروايات المأثورة عن النبى (صلى الله عليه وآله) وأئمة أهل البيت (عليهم السلام). غير أن هذه التفاسير وتلك الروايات لا تعارض بينها فى واقع الأمر؛ لأن المراد بالحبل الإلهى هو كل ما يمثل صلة ووسيلة ارتباط بالذات الإلهية المقدسة، سواء كان تلك الوسيلة هى الإسلام، أم القرآن، أم النبى وأهل بيته؛ فجميع هذه المصاديق تندرج تحت المفهوم العام الواسع لـ «الصلة بالله تعالى» المستفاد من دلالة «حبل الله».

وقد ذكر على بن إبراهيم القمى، من علماء القرنين الثالث والرابع الهجريين، فى تفسيره ذيل قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا...﴾ أن المراد به «التوحيد والولاية». وجاء فى رواية أبى الجارود عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) فى بيان الآية المذكورة: أن النهى فى قوله ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ نهى عن الفرقة والافتراق، أى «اجتمعوا على ولاية آل محمد (صلى الله عليه وآله)».

أما الشيخ محمد عبده، فقد ذهب إلى أن فى الآية استعارة تمثيلية؛ موضحا أن الآية تصوّر هيئة المسلمين وحالهم عند تمسكهم بكتاب الله واجتماعهم وتعاونهم فيما بينهم بهيئة المعتصم من مكان مشرف بحبل وثيق يأمن معه من السقوط والهلاك؛ فالذى يستمسك بكتاب الله فى حقيقة الأمر إنما هو «آخذ بالإسلام».

تتمة تفسير آية الاعتصام

وقد ذكر الآلوسى، فى معرض تفسيره للآية المذكورة، بإسناد صحيح عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال:

«كتاب الله هو الحبل الممدود من السماء إلى الأرض».

كما نقل عن زيد بن ثابت أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال:

«إنى تارك فيكم خليفتين: كتاب الله عز وجل، ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتى أهل بيتى...».

ثم أوضح أن فى هذا التعبير استعارة تمثيلية؛ إذ شبه حال من يتمسك بكتاب الله بحال شخص اعتصم بحبل موثوق وتدلى به من موضع مرتفع، فنجا به من السقوط والهلاك.

وذكر طنطاوى فى *الجواهر فى تفسير القرآن* أن الله تعالى خاطب المؤمنين، على سبيل التكريم والتشريف، وأمرهم بالتمسك بـ «حبل الله» فى قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا...﴾ وقد اعتبر هو أيضا أن لفظ «الحبل» مستعار للدين والقرآن.

ويبدو أن المعنى العام للآية يدور حول محور واحد، وهو أن يكون المسلمون أتباع دين واحد، ورسول واحد، وكتاب واحد. ولترسيخ هذا المعنى فى الأذهان، وبيان ثمرات الاعتصام بحبل الله، وما يفضى إليه من الاتحاد والوفاق بين المسلمين، يذكر القرآن الكريم حال العرب قبل الإسلام، حين كانوا واقعين فى الاختلاف والعداوة، ثم أصبحوا بنعمة الإسلام إخوة متحابين.

ب) قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾

(آل عمران: ١٠٣)

تمثل هذه العبارة القسم الثانى من الآية الكريمة، وهى تعرض الوحدة والأخوة بوصفهما سبيل النجاة. فقد كان المسلمون - فى ما مضى - على حافة حفرة من النار، بحيث كان يمكن أن يسقطوا فيها فى أية لحظة، فيهلكوا ويذهب أمرهم سدى؛ غير أن الله تعالى أنقذهم من ذلك المنحدر، وهداهم إلى موضع الأمن والطمأنينة، أى إلى الأخوة والمحبة.

ويؤكد العلامة الطباطبائى، فى تفسير هذه الآية، أن الله تعالى دعا عموم المسلمين إلى الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله الأكرم (صلى الله عليه وآله). ويقول:

«وهذه الآية تتعرض لحكم الجماعة المجتمعة، والدليل عليه قوله: ﴿جميعا﴾ وقوله: ﴿ولا تفرقوا﴾».

ثم يبين أن هذا الأمر ذو طابع عام، فيقول:

«إن الآية تأمر المجتمع الإسلامى بالاعتصام بالكتاب والسنة، كما تأمر الفرد بذلك».

ويمكن أن يستفاد من ذلك أن إقامة الوحدة وصيانتها فى المجتمع الإسلامى من مظاهر التقوى الاجتماعية والسياسية، وأن إثارة التوترات والصراعات بين المسلمين تنافى مقتضيات التقوى الإلهية.

ج) قوله تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(البقرة: ٢١٣)

تعد هذه الآية من أهم الآيات التى تبين علة تشريع الدين والتكليف، كما تفسر منشأ الاختلافات التى وقعت بين البشر فى هذا المجال.

فالبشر، بحكم فطرتهم المدنية والاجتماعية، كانوا عند نشوء مجتمعهم جماعة واحدة متجانسة. ثم ظهرت بينهم، بمقتضى طبيعتهم البشرية وتنافسهم على مصالح الحياة ومزاياها، اختلافات ونزاعات. وكان رفع هذه النزاعات يحتاج إلى وضع قوانين ونظم مناسبة؛ لذلك بعث الله تعالى الأنبياء، وأنزل معهم الأحكام والقوانين فى صورة الدين، وقرن بها البشارات والإنذارات، وأكملها بمجموعة من الواجبات العبادية.

غير أن الاختلاف عاد فظهر فى المعارف الدينية، وفى قضايا المبدأ والمعاد، فنشأت بين الناس فرق وشعب متعددة، واختل بذلك اتحادهم الدينى، ثم امتدت آثار الاختلاف المذهبى إلى مجالات أخرى. ولم يكن منشأ هذا الاختلاف نقص البيان أو

غموض الحجة، بل نشأ من تعدى بعض الذين أوتوا الكتاب وبغيهم، مع علمهم بمضامين الكتاب السماوى وأصوله ومعارفه، وبعد أن قامت عليهم الحجة بوضوح البينات.

بيان نوعى الاختلاف

وعلى هذا الأساس، يمكن تقسيم الاختلافات التى تنشأ بين الأفراد إلى نوعين:

١. **الاختلاف فى شؤون الدنيا وتدبير المجتمع:**

وهو اختلاف فطرى، يتمثل فى تباين وجهات النظر بين عامة الناس فى فهم المشكلات الاجتماعية ومعالجتها. ولا يعد هذا النوع من الاختلاف مذموما؛ لأن الله تعالى، تفضلا ورحمة منه، بعث الأنبياء إلى الناس بأحكامه وتعاليمه، لما فيهم من عجز عن إزالة هذه الاختلافات بأنفسهم.

٢. **الاختلاف فى أمر الدين:**

وهذا لا يقع بين عامة الناس، بل ينشأ بين حملة الكتاب، لا فى سياق السعى إلى بلوغ الحق، وإنما بعد العلم بالحق، وظهور البينات، وتمام الحجة.

وهذا الاختلاف أمر لازم، ووقوعه بين أفراد المجتمعات البشرية حتمى؛ لأن البشر يختلفون باختلاف موادهم واستعداداتهم، وإن كانوا جميعا متحدين فى الصورة الإنسانية. فوحدة الصورة الإنسانية تقتضى، إلى حد ما، تقارب الأفكار والأفعال، غير أن اختلاف الطبائع والمواد يقتضى بدوره تفاوت المشاعر والإدراكات والأحوال.

ومن ثم، فإن الناس، وإن اتحدوا من جهة، فهم مختلفون من جهة أخرى. ويؤدى اختلاف المشاعر والإدراكات إلى اختلاف المقاصد والآمال، كما يفضى اختلاف المقاصد إلى اختلاف الأفعال، وهو ما يسبب اضطراب النظام الاجتماعى. ومن هنا نشأت حاجة البشر إلى تشريع القوانين الكلية التى تزيل أسباب الاختلاف، وتضمن وصول كل ذى حق إلى حقه.

ولهذا شرع الله سبحانه للناس الشرائع والقوانين، وجعل أساسها التوحيد، لتصلح عقائد البشر وأخلاقهم وسلوكهم. فالتشريع الدينى والتقنين الإلهى يقومان على أساس العلم والحق.

وبناء على ذلك، فإن الاختلاف المذموم هو ما يؤدى إلى التفرق والعداوة داخل الأمة الواحدة، ويؤجج النزاع بين الطوائف، ويفضى إلى تمزق الجماعات والأمم.

وبعد أن أمر القرآن الكريم بالاعتصام بحبل الله، دعا إلى التحلى بالتقوى الإلهية على أكمل وجه، والثبات على طريق الإسلام إلى حين الموت. ومن هنا يتبين شدة نهى القرآن عن الوقوع فى شراك الفرقة والاختلاف، حتى لا يصاب المسلمون بما أصاب الأمم السابقة من اختلاف مذموم، فيذوقوا ما ذاقته من العواقب الوخيمة.

د) قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(آل عمران: ١٠٥)

أى: لا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا بعد أن جاءتهم الأدلة الواضحة، فإن لهم عذابا عظيما.

وتتناول هذه الآية مرة أخرى قضية الاتحاد، والتحذير من الفرقة والنفاق. فهى تنهى المسلمين عن أن يسلكوا سبيل التفرق والاختلاف الذى سلكته الأمم السابقة، كاليهود والنصارى، فيستحقوا بذلك العذاب العظيم. وهى، فى حقيقتها، دعوة إلى دراسة تاريخ الأولين، والتأمل فى مصائرهم المؤلمة التى آلت إليها أحوالهم بعد الاختلاف والتفرق.

وإن إلحاح القرآن الكريم فى هذه الآيات على اجتناب الفرقة والنفاق يشير إلى خطورة إمكان وقوع هذا الأمر فى المجتمع الإسلامى مستقبلا؛ إذ إن كثرة التحذير القرآنى من أمر ما تدل على عظم خطره وقرب إمكان ظهوره بين المخاطبين.

٢. الآيات التى تبين أن مهابة المسلمين وقوتهم تكمن فى وحدتهم

أ) قوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾

(الأنفال: ٤٦)

أى: أطيعوا الله ورسوله، ولا تتنازعوا فتضعفوا وتزول قوتكم ومهابتكم.

وقد سبق هذه الآية خطاب الله تعالى للمؤمنين بقوله:

ب) قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(الأنفال: ٤٥)

أى: يا أيها الذين آمنوا، إذا لقيتم جماعة من الأعداء فاثبتوا، وأكثروا من ذكر الله، لعلكم تفلحون.

تدل هذه الآية على أن من أبرز علامات الإيمان ثبات المسلمين فى مختلف الميادين، ولا سيما عند مواجهة أعداء الحق. وقد بين الله تعالى عامل الثبات مباشرة بصيغة الأمر فى قوله: ﴿فَاثْبُتُوا﴾، وجعل هذا الثبات من أسباب النصر. ثم ذكر، عقب ذلك، عامل الإخلاص فى قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾. وبعبارة أخرى، فإن الله تعالى جعل للنصر فى الجهاد، إلى جانب الثبات العملى، شرطا آخر هو الإخلاص.

ولا يقتصر الإخلاص فى الجهاد على التلفظ بالتهليل والتكبير، بل ينبغى أن يكون الجهاد والقتال خالصين لوجه الله تعالى. ويرى العلامة الطباطبائى أن المراد بذكر الله هو الذكر القلبى واللسانى معا، ولا سيما أن الذكر قيد فى الآية بكونه كثيرا؛ أى إن على المجاهد أن يستمد من ذكر الله روح التقوى والثبات.

وهكذا، يعد الثبات وكثرة ذكر الله من أهم الأسباب المعنوية للنصر. ثم يأمر الله تعالى مباشرة بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لتكون طاعة الله ورسوله، فى الحرب والسلم، وفى الأوامر والنواهى، ركنا من أركان قوة الأمة الإسلامية وانتصارها.

أما النهى فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾، فيدل على أن الاختلاف والتنازع بين المسلمين يؤديان إلى ضعفهم، ويذهبان بعزتهم وشوكتهم. وفى هذا المعنى يقول العلامة الطباطبائى:

«فإن اختلاف الآراء يخل بالوحدة ويوهن القوة».

٣. الآيات التى ورد فيها لفظ «أمة واحدة»

تجدر الإشارة إلى أن بعض الآيات التى ورد فيها تعبير «أمة واحدة» كانت محل اختلاف واسع بين المفسرين؛ إذ قد يتوهم منها القول بمشيئة جبرية فى توحيد الناس ضمن أمة واحدة. غير أن هذه الآيات تنفى، فى الواقع، كل تصور للمشيئة الجبرية فى هذا المجال، وتبين أن إرادة الله تعالى تعلقت بأن يصل الناس إلى الأمة الواحدة عن طريق الاختيار والإرادة الحرة. ومن هنا تبرز ضرورة دراسة هذه الآيات.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

(هود: ١١٨-١١٩)

أى: لو شاء ربك لجعل الناس جميعا أمة واحدة، ولكنهم لا يزالون مختلفين، إلا من شملتهم رحمة ربك؛ ولهذا خلقهم.

وقد أثارت هذه الآية، بسبب بعض الإشكالات اللفظية والمعنوية، آراء تفسيرية متعددة. ومن هذه الإشكالات: إذا كان الله تعالى قادرا على أن يجعل الناس أمة واحدة، أى أتباع دين واحد هو الإسلام، فلماذا لم يقع ذلك فعلا؟

ويجيب أبو الفتوح الرازى بأن المراد من المشيئة هنا مشيئة القهر والإلجاء والإكراه؛ أى إن الله تعالى لو شاء أن يحمل الناس على الوحدة حملا قهريا لفعل، وهو قادر على ذلك، ولكنه لم يشأه؛ لأنه منحهم الاختيار، الذى يقوم عليه أساس التكليف.

ومن الإشكالات اللفظية الأخرى قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: فهل يعود اسم الإشارة «ذلك» إلى الاختلاف، أم إلى الرحمة؟ أى: هل خلق الله الناس ليظلوا مختلفين، أم خلقهم لينالوا رحمته؟ وقد استشكل بعضهم هذا الوجه الأخير بكون لفظ «الرحمة» مؤنثا، وقالوا: لو كان اسم الإشارة عائدا إليها لكان مقتضى الظاهر أن يقال: «ولتلك خلقهم».

ويرى العلامة الطباطبائى أن اسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعود إلى الرحمة التى يدل عليها قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾. ولا ينافى ذلك كون لفظ «الرحمة» مؤنثا من حيث اللفظ؛ إذ يجوز فى المصدر «رحمة» التذكير والتأنيث فى الإشارة إليه. ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(الأعراف: ٥٦)

وأشار الشيخ الطوسى إلى نكتة أخرى مهمة، وهى أنه حتى لو أعيد اسم الإشارة «ذلك» إلى الاختلاف، فإن اللام فى قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ليست لام الغرض والتعليل، بل هى لام العاقبة؛ أى إن الله تعالى خلق الناس مختارين، فآل أمر بعضهم - باختيارهم وبحسب دواعيهم - إلى طريق الاختلاف.

ويضيف العلامة الطباطبائى أن الاختلاف المذكور إنما ينشأ من بغى الناس أنفسهم وظلمهم؛ فهو الذى يفضى إلى تفرقهم عن الحق، وستر الحق، وإظهار الباطل. ومثل هذا الاختلاف لا يمكن، بحال، أن يكون غاية الخلق أو الغرض من إيجاد الإنسان.

فلا يستقيم أن يقال إن الله سبحانه أوجد العالم الإنسانى لإحياء الظلم والعدوان، وإبطال الحق، ثم يهلك الناس بسبب ذلك الجرم، ثم يخلدهم فى النار. فالقرآن الكريم، فى مجموع بياناته، يرفض هذا الاحتمال، ويؤكد أن ما يأتى من جانب الله تعالى إنما هو الرحمة والهداية، أما الظلم والاختلاف فمن صنع الناس أنفسهم.

ذلك أن الله تعالى، وفقا لسننه الثابتة التى لا تتغير، يمنح نعمة التوحيد والوحدة، ويجعل الإنسان فى عداد «الأمة الواحدة»، لمن يختارون سبيل الرشد والهداية بالانتفاع من الأسباب والوسائل المتاحة، وبإعمال عقولهم، وبالاسترشاد بهدى الأنبياء.

فهؤلاء يتجاوزون حدود المظاهر والتكثرات التى يؤدى الوقوف عندها إلى الفساد والسقوط والهلاک، فينقذهم الله تعالى، برحمته ولطفه، من الفساد والتفرق.

وقد أشارت إلى هذا المعنى آيات متعددة، منها: الشورى: ٨، والمائدة: ٤٨، والنحل: ٩٣.

دراسة آفات الوحدة الإسلامية وعوائقها

إن دراسة العوامل والأسباب والمشكلات التى تعوق اتحاد المسلمين تمثل ضرورة عاجلة وأولوية ملحة؛ ذلكلى بالاختلاف والانقسام يخرج عن حالته الطبيعية واعتداله، ويغدو بحاجة إلى العلالى بالاختلاف والانقسام يخرج عن حالته الطبيعية واعتداله، ويغدو بحاجة إلى العلاج. ولمعالجة مثل هذه الظواهر الاجتماعية الشاذة، ينبغى أولا تشخيص علل نشوئها وأسبابها، والتوجه لمعالجة السبب قبل الأثر، والعلة قبل المعلول؛ فالنزاع والصدام الطائفى معلول لعوامل شتى، وما لم تشخص تلک الأسباب وتستأصل، فلن تزول آثارها المتمثلة فى الحروب والنزاعات الفرعية والمذهبية.

وبصورة عامة، يمكن تصنيف العوائق التى تقف أمام وحدة المجتمع إلى فئتين:

أ) العوائق الداخلية

يُقصد بالعوائق الداخلية فى سياق ترسيخ الوحدة الإسلامية وتشخيص آفاتها: دراسة العوارض والأمراض الناشئة من داخل البنية الفكرية والنظرية للأمة الإسلامية، والتى أوقعت المسلمين فى التنازع والتشرذم؛ وتتجلى أهمية هذا الجانب من كون الوحدة الإسلامية شأنا وقضية داخلية محضة فى إطار الدين.

١. إغفال أصل المداراة والتسامح:

يقول الله تعالى فى محكم كتابه:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

(الفتح: ٢٩)

أى: إن محمدا صلى الله عليه وآله رسول الله، والذين معه يتميزون بالشدة والصلابة تجاه الكفار، والتراحم والعطف فيما بينهم. ويقتصر مفهوم الشدة فى هذه الآية الكريمة على الكافر المعاند الذى لا يرتدع إلا بالقوة والحزم؛ أما من سواهم، فهم جديرون بالمداراة الإسلامية، والمؤمنون والمسلمون أولى بالرحمة والمودة فيما بينهم.

بل إن نطاق هذه المداراة يتسع ليشمل أتباع الأديان الأخرى، ومن هنا يتعين على المسلمين وسائر أتباع النبى صلى الله عليه وآله تقديم أصل المداراة الإنسانية على أى سلوک يتنافى مع مقتضيات الأخوة الإيمانية، وألا يدعوا مجالا لتحول الخلافات إلى عنف طائفى ومذهبى.

وفى هذا السياق، يشير المستشرق الفرنسى غوستاف لوبون إلى هذه الحقيقة قائلا:

«إنه لمن المؤسف للغاية لأتباع المسيح أن التسامح الدينى، الذى يُعد عند سائر الأمم جزءا من قوانين المروءة، إنما تعلموه من المسلمين».

٢. غياب الالتزام العملى بتعاليم الدين من جانب عموم المسلمين:

يتطلب إيضاح هذا العامل التفاتة جادة إلى السياقات التاريخية؛ إذ نشأت بفعل عوامل تاريخية معينة أفكار ومتبنيات داخل البيئة الإسلامية أدت إلى تراجع مكانة التعاليم الإسلامية الأصيلة، المتمثلة فى القرآن المجيد والسنة النبوية الشريفة، وتقديم الآراء والأعراف البشرية لبعض المنتسبين إلى المجتمعات الإسلامية على النصوص الصريحة.

فعلى سبيل المثال، على الرغم من دعوة القرآن الكريم الصريحة لجميع المسلمين إلى الوحدة والأخوة الإيمانية، فإن أقوال وسلوكيات بعض العلماء والفقهاء والمحدثين ممن يدعون الاتباع للكتاب والسنة، تسهم عمليا فى بذر بذور الفرقة والشقاق. فهم ينفخون فى نار هذا التوجه المخالف لمنهج القرآن والسنة النبوية بأقلامهم وبياناتهم ومواقفهم؛ ويمكن إرجاع ذلك إلى الغفلة وقصور الفهم، أو الاستبداد بالرأى إزاء الأحكام الإسلامية الجلية، أو اتباع الأهواء والأغراض النفسية وسعيا وراء الحفاظ على المصالح والمواقع الاجتماعية والسياسية.

. تجنب العنف وإشاعة الرحمة والرأفة الإسلامية:

بيّنا سالفًا أن القرآن الكريم يأمر المسلمين بالتعامل مع أهل الإيمان بالرحمة والرأفة والتآلف، لا بالعنف والغلظة؛ فالشعار الجوهرى للإسلام هو الرحمة، ولذا لُقّب النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بـ ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ إذ كان مسعاه بسط الرحمة وإشاعتها، لا حصرها فى فئة أو مذهب دون آخر. والأساس الذى اعتمده الإسلام لتحقيق الوحدة هو الإيمان بالله (التوحيد)، وهو جوهر كامن فى كل إنسان.

ومن أبرز الآيات الشاهدة على ذلك قوله تعالى فى سورتى هود:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

(هود: ١١٨-١١٩)

حيث جعلت الآية الغاية من خلق الإنسان إفاضة الرحمة الإلهية، واعتبرت غياب الاختلاف والتنازع فى الأمة من تجليات تلك الرحمة.

ومن جانب آخر، يصف الحق سبحانه رسوله الكريم بأنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ فكيف يرضى هذا الرسول الرؤوف الرحيم أن ينعم وحده فى الجنان الوارفة، بينما يقبع جمع من المؤمنين برسالته ونبوته، الشغوفين بفضائله ومناقبه، مصفدين فى دركات الجحيم تحت أطباق النيران؟ وهم الذين أقروا بربوبية الله وبصدق رسوله وما جاء به، ولم يكن ذنبهم إلا أن غلبتهم الجهالة فصاروا ألعوبة للشيطان فاقترفوا الخطايا، دون عناد أو استكبار منهم.

ويجدر ختامًا التأكيد على قوله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

فهى دلالة بينة على نفى الإكراه فى العقيدة بعد وضوح الرشاد من الضلال؛ وهذا الأصل يسد ذرائع العنف وسفك الدماء، ويجعل الإنسان مخيرًا بالكامل. وبناء على ذلك، فإن كمال الدين يتجلى فى جاذبيته ووده، لا فى الترهيب وبث الرعب، ومحور الوحدة الأساسى يقوم على هذه الرحمة والجاذبية لا على الإكراه والبطش.

٤. اجتناب الإساءة وسب مقدسات الآخرين:

يرفض الإسلام الشتم والسباب والطعن بأى وجه كان ويدينه بشدة؛ بل إن القرآن الكريم ينهى عن سب آلهة المشركين وأصنامهم، مع أنها باطلة محض وجاء النبى صلى الله عليه وآله لاجتثاثها، حيث يقول تعالى:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

(الأنعام: ١٠٨)

٥. الابتعاد عن السطحية والنزعة الظاهرية (القشرية):

ينحصر جل الخلاف بين السنة والشيعة فى حقلى الفقه وعلم الكلام، مع تركز أكثره فى الجانب الكلامى. ولو نظرنا إلى جوهر الدين فى بعديه الفردى والاجتماعى — المتمثلين فى «العبودية» و«العدالة» — لما بقى مسوغ مشروع لإثارة النزاع وتكريس مواطن الخلاف؛ فالأحكام الفقهية جاءت لبيان المناسك والتشريعات العبادية، بينما تعنى المباحث الكلامية بالأبعاد المعرفية والاعتقادية.

وعليه، يسع المسلمين تجاوز المسائل الهامشية والخلافية عبر الارتكاز على عنصرى العبودية والعدالة، اللذين يمثلان جوهر الدين وروحه الأصيلة. كما ينبغى للعلماء والمفكرين من كلا الفريقين الحذر من تعميم الاختلاف فى الفروع على الأصول، أو اتخاذ التباين الفقهى والكلامى ذريعة لافتراق الأصول وتأسيس السلوك العملى عليه.

ب) العوائق الخارجية

تنشأ العوائق الخارجية من إغواءات القوى الاستعمارية ومكائدها ومؤامراتها الجلية والخفية؛ إذ ترى تلك القوى فى اتحاد المسلمين وتضامنهم خطرًا داهمًا لا يُطاق، فتسعى جاهدة عبر إذكاء الفرقة والخلاف والنزاع بين شعوب العالم الإسلامى إلى الحيلولة دون تشكيل جبهة التوحيد وتجسيد الأمة الإسلامية الواحدة.

وباستقراء تاريخ الإسلام، يتبين أن بلاد المسلمين ابتعدت تدريجيًا عن الوحدة التى أرساها النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى المدينة المنورة عبر عقد المؤاخاة، وانحدرت نحو التفرق والاختلاف؛ حتى إن الخلفاء الراشدين واجهوا تيارات مفرقة كان على رأسها العصبية القبلية. ومع أن الأمويين كانوا آخر من بسط سلطانه على كامل العالم الإسلامى كدولة واحدة، إلا أنهم كابدوا قوى تفريقية تمثلت فى الاستقطاب بين جند الشام وجند خراسان، وهو ما عكس أوائل التنافس والنزاع القومى بين الفرس والعرب.

والنقطة الجوهرية هنا هى أن الضعف التدريجى الذى أصاب العالم الإسلامى، وما تلاه من فرض للاستعمار الغربى، أحدثا شرخًا أعمق وفقدانًا جسيمًا للوحدة، وأفرزا أشكالًا من التمايز والانقسام لا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

ومن البين أن أعداء الإسلام يتربصون به الدوائر، ويحيكون المؤامرات ضد المسلمين بأساليب شتى؛ فتارة تكون مؤامرات سافرة مصحوبة بتدخلات عسكرية وسياسية مباشرة، وتارة أخرى تُمرر عبر التسلل والاختراق فى أوساط الأمة لإنفاذ مآربهم.

وفى العصر الراهن، اتكأ الاستعمار لمنع إحياء الوحدة الإسلامية على مسارين أساسيين:

١. **تفتيت الثقافة والحضارة الإسلامية وتمزيقها:** وذلك عبر تغذية النزعات القومية (القومية الضيقة)، والعنصرية، والتعصب العرقى؛ كما نشهد اليوم من ترويج لفكرة الثقافات المنفصلة (عربية، وفارسية، وتركية، وهندية...)، فى حين أن السائد على مدار أكثر من ألف وثلاثمائة عام لم يكن سوى ثقافة جامعة واحدة هى «الثقافة والحضارة الإسلامية».

٢. **إحداث الشقاق عبر تأجيج النزاعات والحروب الطائفية والمذهبية.**

وقد بيّن الحق تبارك وتعالى مآل مفرقى الأمة والناكثين لعهد وحدتها بقوله:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

(الأنعام: ١٥٩)

وفى سياق تفسير هذه الآية، يرى الشيخ محمد عبده أن إثارة التفرقة وإضعاف التدين من دسائس الأجانب؛ إذ بذل المستعمرون جهودهم لإضعاف الفرق الإسلامية عبر زرع الشقاق، وإيغار الصدور، وإبعاد المسلمين عن جوهر تعاليم الدين الحنيف، وبذر الشكوك والشبهات لفك ارتباطهم بالدين القويم. وترتب على ذلك إذكاء العداء بين الشيعة والسنة، وبين العرب والأتراك والفرس. ومن هذا المنطلق، رفع الشيخ محمد عبده — بوصفه من رواد مناهضة الاستعمار — لواء الدعوة إلى الوحدة، جاعلًا رقى المسلمين ونهضتهم رهنًا باعتصامهم وتآلفهم.

الخاتمة والنتائج

تخلص المباحث والدراسات التى عُرضت حول قضية الوحدة والاتحاد إلى النتائج الآتية:

١. مفهوم الوحدة والاتحاد الإنسانى والإسلامى:

لا يُقصد بوحدة البشر واتحادهم التطابق والتوحيد العقدى التام ونفى التمايزات الفكرية والاجتهادية والذوقية؛ بل المراد التعاطف والتعايش السلمى، واحترام حقوق الآخر، ومراعاة المصالح المتبادلة فى ظل وجود تلك الاختلافات.

وكذلك ليس المراد بوحدة الأمة الإسلامية دمج المذاهب فى موقف عقدى وفقهى واحد أو طمس الآراء وكتمانها؛ بل الغاية أن تتعارف الفرق والمذاهب الإسلامية تعارفًا صحيحًا، وتطّلع على المبانى الفكرية والعقدية لبعضها بعضًا بدقة وإنصاف، وتجتنب النزاع والشقاق الذى نهى عنه القرآن الكريم صيانةً لكيان الإسلام، وأن تكون يدًا واحدة دفاعًا عن حياض القرآن الكريم والأصول والثوابت الإسلامية المشتركة.

٢. الاعتصام بحبل الله ركيزة العزة والبقاء:

بيّن القرآن الكريم فى الآية (١٠٣) من سورة آل عمران أن «حبل الله» هو المرتكز الجوهرى لإرساء الوحدة، وقد فسرته الروايات وعبارات المفسرين بأنه: القرآن الكريم، والوجود المبارك للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام؛ وهو الضامن لديمومة المجتمع الإسلامى وبقائه. كما أن ثمرة هذه الأخوة الإيمانية لا تنفك عن تحقيق العزة والمنعة، والتحرر من التبعية والذلة العامة أمام الأمم والمجتمعات الأخرى.

٣. الأهداف الإستراتيجية للوحدة الإسلامية:

تتجلى أهداف الوحدة والتضامن الإسلامى فى: تسوية الخلافات، وتحقيق النصر والتمكين، وبناء مركز ثقل وقوة للمسلمين على الساحة الدولية، وإرساء التنسيق والتفاهم والتعايش العادل مع أتباع الديانات الأخرى.

٤. المسؤولية المضاعفة للنخب والعلماء:

إن وجود التحديات والعوائق المحدقة بالوحدة بشقيها (الداخلى والخارجى) يضاعف مسؤولية علماء ومفكرى الشيعة والسنة؛ إذ يتعين عليهم تكثيف الجهود فى نشر ثقافة الوحدة والتقارب والوئام، والتصدى بحزم للأساليب والمسالك الخاطئة الشائعة بين العوام والتى تفتقر إلى أى سند عقلى سليم أو أصل نقلى معتبر.

السيرة العملية للنبى صلى الله عليه وآله: الركيزة الأساس لحفظ وحدة الأمة وتماسكها

تُعدّ مسألة الوحدة والتماسك قضية عقلانية فطرية، وفى المجتمعات الإنسانية لا يُفتقر عادةً إلى التماس الأدلة لإثبات أمر عقلانى بديهى؛ غير أن الإنسان يضطر أحيانًا إلى سوق البراهين لبعض البديهيات استثارةً للأذهان وتأكيدًا لأهميتها. والمدار الجوهرى فى قضية الوحدة يكمن فى سبر المبانى والرؤى التى يطرحها الخطاب الدينى لترسيخ وحدة المجتمع الإسلامى.

فعلى سبيل المثال، يتضمن القرآن الكريم — بوصفه الوثيقة الكبرى المحيية للإنسان والإسلام — أكثر من خمسين آية تتناول صراحةً قضية الوحدة والاعتصام، وتبيّن سبل اجتناب التنازع والتشرذم. كما تشهد السيرة العملية للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام، ومنهجهم فى رعاية المصالح العليا، على سعيهم الدائب والمستمر لحفظ وحدة الأمة وتماسكها؛ مع تمسكهم التام بمبادئهم الفكرية والعقدية الخالصة، دون أن يُحدث ذلك أى تعارض مع بناء جبهة إسلامية متراصة. وعليه، فإن وحدة المسلمين وتماسكهم يمثلان خياراً استراتيجيًا راسخًا للأمة الإسلامية.

وفى هذا المعنى، يقرر الشيخ كاشف الغطاء أن الفكر الإسلامى بُنى على ركنين أصيلين: «كلمة التوحيد» و«توحيد الكلمة»؛ أى عبادة الله الواحد أولًا، والاجتماع والاتحاد ثانيًا. والواقع أن التوحيد لا ينفك عن الوحدة ولا يتحقق واقعًا بدونها؛ فالأمة العاجزة عن صيانة تماسكها ولحمتها لن تقوى على بسط حقيقة التوحيد فى ربوع الأرض، إذ لا تتجسد عبودية الله على الوجه الأكمل إلا بوجود أمة إسلامية عزيزة متحدة، تملك زمام المنعة لإقامة أحكام الله وشرائعه.

إن ما ترزح تحته مجتمعاتنا اليوم من تخلف وفقر وتشتت واضطراب إنما يرتد أساسًا إلى داء الفرقة وغياب الاتحاد. وشئنا أم أبينا، فإن قوى الكفر تقف صفًا واحدًا فى مواجهة الإسلام. ونرى فى العصر الراهن كيف تسعى المجتمعات الغربية إلى تأسيس اتحادات وولايات متحدة؛ انصياعًا لحكم العقل الذى يرشدهم إلى أن حشد الطاقات والوصول إلى الغايات لا يتم إلا بالتكتل والانسجام.

وثمة مسالك وسبل متعددة لبلوغ الوحدة؛ وهى مسالك بينة ومعلومة لدى الجميع، إلا أنها مهددة بالغفلة والإهمال.

ومن أبرز تلك السبل: استحضار المشتركات القائمة بين المذاهب الإسلامية والتعريف بها؛ فما لم يتعرف المسلمون على مساحات التوافق بينهم، قد يتولد لديهم شعور زائف بالعداوة والافتراق الحاد. لكنهم متى ما أنصفوا والتفتوا إلى تلك الجوامع، أدركوا أن المسلمين — شيعةً وسنة، حنفية وزيدية وشافعية وغيرهم — يتقاسمون مساحات مشتركة هائلة: فقبلتهم واحدة، وكتابهم السماوى واحد، ونبيهم واحد، وأكثر من تسعين بالمائة من أحكامهم متفقة ومتشابهة.

وفى هذا الصدد، يشير الباحث والمفكر العراقى الدكتور حسين على محفوظ إلى نتائج استقرائه قائلًا: «لقد عكفتُ على البحث والتحقيق، فوجدتُ أننا معشر المسلمين متفقون فى الأخلاق بنسبة مائة بالمائة، وفى العرفان والسلوك مائة بالمائة، وفى العقائد بيننا اختلاف يسير غير ذى بال؛ فهل يستسيغ العاقل — مع كل هذه الجوامع الهائلة وهذا الهامش الضئيل من التباين — أن يهدم تلك المشتركات الجامعة؟».

لقد نالت مسألة المشتركات عناية بالغة فى المباحث الفقهية والكلامية؛ فحينما نرى المسلمين يؤدون صلواتهم اليومية على نسق واحد فى الركوع، والسجود، والقنوت، فما الداعى إذن إلى النفخ فى كير الخلافات الجزئية وتأجيجها؟

ومن السبل الأخرى لبلوغ الوحدة والاتحاد: التمسك بحبل الله المتين؛ وتلك وصية القرآن الكريم الصريحة بالنهى عن التفرق والتشرذم، مذكّرًا بأن الله تعالى ألّف بين القلوب بعد أن كان الناس على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها. وسواء فُسّر حبل الله بالقرآن الكريم أو بأهل البيت عليهم السلام، فلا تعارض بينهما؛ إذ قرر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فى حديث الثقلين أنهما «لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض». ومن ثم، فإن للأمة مرجعًا معصومًا وحبلًا ممدودًا، والجميع مكلفون بالاعتصام به والعمل بمقتضاه.

ويُعدّ الاقتداء بالقادة الربانيين والعلماء الصادقين استراتيجية أصيلة أخرى لترسيخ الوحدة والانسجام. فالناظر فى التاريخ يجد أن شقاء البشرية بدأ يوم انحرفت عن قادتها الحقيقيين وتنكبت هدى النبوة. وفى عصر غيبة الإمام المهدى (عجل الله فرجه الشريف)، يتعين الرجوع إلى رؤى المراجع والقادة الحقيقيين؛ فنرى اليوم تأكيد قائد الثورة الإسلامية الدائم على درء الفتنة وحرمة شق صفوف المسلمين، كما يبرز الموقف التاريخى لسماحة آية الله السيد السيستانى حين خاطب أهل السنة بقوله: «لا تقولوا إخواننا، بل قولوا أنفسنا». وعلى المسلمين الانقياد لمثل هذه المواقف الحكيمة القائمة على العقل والبصيرة صيانةً للأمة من التيه والضلال.

وتتجلى إحدى الاستراتيجيات المحورية فى تعزيز الوحدة بإصلاح الواقع الاقتصادى فى العالم الإسلامى؛ إذ إن إقامة العدالة الاجتماعية كفيلة بردم الفوارق الطبقية والحد من الإجحاف والحرمان. ولا يليق بالمجتمعات الإسلامية أن يُدعى المستضعفون فيها إلى الصبر والزهد، فى حين يكدس آخرون الثروات الطائلة بغير وجه حق. إن عزة الإسلام كانت يوم وقف قادته وعظماؤه

فى صف واحد مع عموم الناس؛ أما حين آلت الأمور ببعض المتصدرين إلى أن تُقتسم سبائک ذهبهم بعد موتهم بالفؤوس والمعاول، تصدع بنيان المجتمع. وإذا أردنا وحدة حقيقية، فلا بد من تجفيف منابع التفاوت الطبقى الفاحش، ومصداق ذلک ما يُروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام: «ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع».

كما تبرز استراتيجية إشاعة ثقافة الحوار والانفتاح الفكرى؛ إذ يقوم منهج الإسلام والقرآن على مبدأ المحاورة، ومن هنا تنطلق دعوات حوار الثقافات والأديان والمذاهب. وكان النبى الأكرم صلى الله عليه وآله رائد هذا النهج وفاتح بابه، فدعا الخصوم إلى المحاجة بالحسنى. وينبغى للمجتمعات الإسلامية تفعيل الحوار المؤسسى فى مختلف الميادين؛ فما دامت كل الحروب والصراعات تضع أوزارها فى نهاية المطاف على طاولة التفاوض والحوار، فلماذا لا يُبدأ به حقنًا للدماء وحفظًا للطاقات؟

ومن المسالک الجوهرية أيضًا ترسيخ روح العبودية والامتثال لله تعالى؛ فالمجتمع المستسلم لأمر الله، والمقدم لطاعته على كل ما سواها، ينهض بأداء التكليف على أتم وجه. وإن الفطرة الإنسانية مجبولة على الاستجابة للهدى الإلهى، وجاءت بعثة الأنبياء لإحياء هذه الفطرة وإثارة دفائن العقول، وهو ما لا يتأتى إلا بالتعبد والانقياد؛ فإذا عاد الإنسان إلى فطرته عاد بالضرورة إلى القيم الإنسانية المشتركة المجمع عليها بين الأديان والشرائع.

ويُضاف إلى ذلک إشاعة روح الأخوة الإيمانية؛ ففى الوقت الذى تبحث فيه سائر الأمم عن شعار الأخوة لتأليف مجتمعاتها، يمتلک المسلمون دينًا ورسالة واحدة، وشعار الإسلام الأصيل هو الأخوة؛ فما الذى يعوقهم عن تجسيده واقعًا؟

كما ينبغى التأكيد الصارم على المبادئ الأخلاقية؛ فالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله — وهو القمة السامقة فى مكارم الأخلاق — لخص غاية بعثته فى قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ومن ثم، فإن النيل من معتقدات الآخرين وسب مقدساتهم سلوک مجرد من الأخلاق الإسلامية ومنافٍ لروح الشريعة.

وختامًا، فإن التحدى الأكبر والعقبة الكأداء أمام الوحدة هما: التعصب الأعمى وغياب التعقل؛ وقد حذر القرآن الكريم أتباعه من حمية الجاهلية. ويقضى العقل الصريح بأن التخلف الراهن فى العالم الإسلامى وليد التشتت والفرقة؛ وما لم يتكاتف المسلمون ضمن منظومة إسلامية شاملة، وسوق إسلامية مشتركة، وجيش وأمن دفاعى موحد، ومنظومة إعلامية وثقافية متناسقة، فسيظل العالم الإسلامى عرضةً للغارات والشبيخون الثقافى والسياسى من قبل المتربصين به.

شخصية نبى الإسلام فى مرآة المستشرقين والمفكرين الغربيين

يتمتع النبى الأعظم صلى الله عليه وآله بشخصية سامقة وفذة سطع نورها الوضاء فى مشارق الأرض ومغاربها، واستقطبت أنظار العقول الباحثة والمنصفة، حتى انطلقت ألسنتهم بالثناء العاطر على خلقه العظيم وشمائله الرفيعة.

ولا يعنى هذا بطبيعة الحال انعدام الحملات الدعائية المغرضة ضد الإسلام ونبيه من قبل بعض الدوائر والشخصيات فى العالم؛ إذ لا نزال نشهد حتى يومنا هذا، فى بعض البلدان التى تدعى التحضر، محاولات متكررة لبث افتراءات ومزاعم باطلة تعكس أحقاداً دفينة تجاه شخصية نبى الإسلام. غير أن شمس الحقيقة لم ولن تحجبها سحب التضليل، وظل كبار المفكرين والعلماء يعلنون وجه الحق الناصع. ومما لا شك فيه أن النبى محمداً صلى الله عليه وآله شخصية إنسانية عالمية لا تنحصر فى قوم أو أمة بعينها، ويحق لكل باحث حر ومفكر منصف أن يتناول هذه الشخصية من منظوره، واصفًا إياها بما رآه وتجلى له من عظمتها.

إن رسول الله صلى الله عليه وآله هو أزكى الجواهر وأسماها فى صدفة الوجود، ودُرّة تاج عالم الإمكان؛ ذلك الوجود المبارك الذى لم يرقَ أحد إلى منزلته وسجاياه العالية، ولم يدانِهِ بشر فى فضائله ومناقبه الرفيعة التى هيأته لحمل أعباء هذه الرسالة الخاتمة.

لقد كان استكناه شخصية النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والبحث فيها محط اهتمام دائم للمفكرين والعلماء عبر التاريخ؛ إذ ظل التساؤل شاخصًا لدى المحللين والباحثين: كيف نشأ محمد رسول الله صلى الله عليه وآله فى قلب صحراء قاحلة ومجتمع ناءٍ عن الحضارة والعلوم؟ وكيف انبثقت من تلك البيئة شخصية بلغت الذروة فى مكارم الأخلاق الإنسانية، وقدمت أعمق التعاليم وأشملها لتربية السلوك وبناء الحضارة؟

ولعل من أدنى ثمار بزوغ شمس النبى الخاتم ودعوته — التى انطلقت بالأمر بالقراءة والكتابة — انتشارُ العلوم والمعارف وازدهارها فى أرجاء العالم الإسلامى، ثم انتقال هذا الإشعاع العلمى والحضارى إلى إسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا، وبريطانيا، وسائر الدول والأمم الأوروبية، وصولًا إلى الإنسانية جمعاء. والشواهد التاريخية على هذه الحقيقة الساطعة لا حصر لها، ومن أبرزها الاعتراف المتكرر من قِبل كبار علماء ومستشرقى الغرب بأن شخصية النبى الأكرم صلى الله عليه وآله تجسد قمة الكمال الإنسانى رقيًا فى الفكر، ورجاحةً فى العقل، وسُموًا فى الأخلاق.

إن نخبة من الكتاب والباحثين وطلاب الحقيقة لم يكتفوا بوضع نبى الإسلام فى طليعة رواد الحضارة الدينية، بل أقروا بصراحة ووضوح بحتمية عالمية الإسلام وعموم رسالته، لما يزخر به من مقومات سامية ومزايا فريدة.

وفيما يلى طائفة منتخبة من آراء ونصوص كبار مفكرى العالم ومستشرقيه، المدونة فى مؤلفاتهم، والتى تبين شخصية النبى الخاتم فى مرآة الفكر الإنسانى العالمى:

. الموسوعة البريطانية (Encyclopædia Britannica):

تصف الموسوعة نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم بما نصه:

«إن جانبًا كبيرًا من التفاصيل الواردة فى المصادر الأولية تُظهر أنه كان رجلًا صادقًا ومستقيمًا، نال احترام ووفاء أناس كانوا هم أيضًا أهل صدق واستقامة».

٢. المؤرخ الأمريكى ول ديورانت (Will Durant):

يكتب المؤرخ الأمريكى الشهير قائلًا:

«إذا ما قسنا عظمة العظماء بما كان لهم من أثر فى الناس، لقلنا إن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) كان من أعظم عظماء التاريخ؛ فقد أخذ على عاتقه رفع المستوى الروحى والأخلاقى لقوم جثت عليهم ظلمة التوحش من فرط حرارة الجو وقحولة الصحراء، وظفر فى هذا السبيل بنجاح لم يظفر به أى مصلح آخر فى تاريخ العالم. وقلّ أن نجد أحدًا غيره حقق جميع غاياته فى خدمة الدين، لأنه كان يؤمن بدينه إيمانًا راسخًا.

لقد صنع من قبائل وثنية متناحرة فى مجاهل الصحراء أمة واحدة، وأقام — فوق ما كانت عليه اليهودية والمسيحية وديانة جزيرة العرب القديمة — شريعة سمحة، ودينًا جليًا وقويًا بنى روحه على الشجاعة والمنعة والكرامة، حتى أحرز النصر فى مائة معركة حربية خلال جيل واحد، وأرسى فى قرن من الزمان دعائم إمبراطورية شاسعة، وبات فى عصرنا الراهن قوة عظمى ذات نفوذ عميق فى نصف المعمورة».

٣. الكاتب والروائى الروسى ليو تولستوى (Leo Tolstoy):

«إن شخص نبى الإسلام العظيم جدير بكل ألوان التبجيل والتكريم. وإن شريعة النبى محمد ستعم العالم بأسره فى المستقبل؛ لتوافقها التام مع مقتضيات العقل وموازين الحكمة».

٤. الفيلسوف والكاتب الفرنسي فولتير (Voltaire):

«لا ريب في أن النبي محمداً كان رجلًا عظيمًا جداً؛ فقد كان فاتحًا قديراً، ومشرعًا حكيمًا، وحاكمًا عادلًا، ونبيًا تقيًا. لقد أدى على مسرح الأرض أعظم دور كان يمكن لإنسان أن يؤديه أمام أعين الناس».

٥. الكاتب والمسرحي الإيرلندي جورج برنارد شو (George Bernard Shaw):

«أرى أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يمتلك القدرة على التكيف ومواكبة تحولات العصور المختلفة في حياة البشرية. وإنني أتنبأ لدين محمد بأنه سيكون مقبولًا لدى أوروبا الغد، كما غدا اليوم محط قبول لدى الكثير من الأوروبيين.

لقد صورت كنيسة القرون الوسطى — إما بدافع الجهل أو التعصب — الإسلام في صورة مظلمة وشائهة؛ وأوهمت الناس بأن محمداً جاء عدواً للمسيح (المسيح الدجال)، وبذلك غرست في نفوس المسيحيين كراهية الإسلام.

غير أنني عكفت على دراسة حياة محمد ومنهجه، فرأيت أنه أبعد ما يكون عن معاداة المسيح؛ بل يجب أن يُعد منقذاً للبشرية جمعاء. وإنني على يقين بأنه لو تولى رجل مثله زمام قيادة العالم المعاصر، لاستطاع أن يحل مشكلاته ومعضلاته بأسلوب يضمن للبشرية ذلك السلام والوئام المنشودين...».

٦. إدوارد غيبون، الكاتب والمؤرخ الإنجليزي:

إن عقائد محمد خالية من الشك والالتباس، والقرآن شاهد مهيب على وحدانية الله. لقد رفض نبي مكة عبادة الأصنام والبشر والنجوم، مستندا إلى هذا المبدأ العقلي: إن كل ما يظهر ثم يأفل ويموت لا يستحق العبادة...

لقد رفض نبي مكة عبادة الأصنام والبشر والنجوم، مستندا إلى هذا المبدأ العقلي: إن كل ما يظهر ثم يأفل ويموت لا يستحق العبادة.

٧. ألفونس دو لامارتين، الكاتب والشاعر والسياسي الفرنسي الشهير في القرن التاسع عشر، يقول في كتابه المسمى «تاريخ تركيا»:

إذا كانت عظمة الهدف، وضآلة الوسائل، والنتائج المدهشة، هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الإنسان، فمن ذا الذي يجرؤ على مقارنة رجل عظيم بمحمد صلى الله عليه وسلم في التاريخ الحديث؟ إن أشهر الرجال لم يؤسسوا إلا الأسلحة والقوانين والإمبراطوريات. ولم ينشئوا شيئا يتجاوز القوة المادية التي كانت، على أي حال، تنهار في الغالب أمام أعينهم. أما هذا الرجل، فلم يحرّك الجيوش والقانون والإمبراطورية والأمة والحكومة فحسب، بل أحدث تحولا في ملايين الرجال في ثلث العالم المعمور آنذاك، بل وفي أكثر من ذلك، كما حوّل دور العبادة والآلهة والأديان والعقائد والمعتقدات والأرواح.

٨. توماس كارلايل، الفيلسوف والكاتب الساخر وكاتب المقالات والمؤرخ الاسكتلندي، كتب في كتابه المعنون «الأبطال وعبادة الأبطال» عن محمد صلى الله عليه وسلم:

إنه لمن المخزي جدا أن يصغي المرء إلى هذا الاتهام القائل إن الإسلام كذبة، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم كان دجالا ومخادعا. لقد رأينا أنه ظل ثابتا على مبادئه بعزم وإرادة راسخين، وكان رحيما كريما، مشفقا، متعففا، ورعا، متحليا برجولة حقيقية، وبالجد والإخلاص. وإضافة إلى كل هذه الصفات، كان في تعامله مع الآخرين متسامحا حليما لطيفا بشوشا، بل كان

أحيانا يداعب أصحابه ويمازحهم. وكان عادلا صادقا، ذكيا مخلصا، نبيلا سريع البديهة. وكان وجهه مشرقا كأنما يحمل فى داخله سراجا ينير أحلك الليالى. لقد كان رجلا عظيما، مع أنه لم يتعلم فى مدرسة ولم يترب على يد معلم؛ لأنه لم يكن بحاجة إلى شىء من ذلك.

٩. يوهان فولفغانغ:

نحن الأوروبيين، بكل مفاهيمنا، لا نستطيع أن نبلغ ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم، ولن يستطيع أحد أن يتفوق عليه. لقد درست تاريخ البشرية بحثا عن نموذج، فتوصلت إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم وحده ينبغى أن يتجلى بوصفه حقيقة ظاهرة. وفى الواقع، نجح محمد صلى الله عليه وسلم فى إخضاع العالم كله لعقيدة التوحيد.

١٠. إدوارد غيبون، المؤرخ وعضو البرلمان الإنجليزى، وسيمون أوكلى، المستشرق البريطانى، يقولان فى كتاب «تاريخ الإمبراطورية الإسلامية»:

«أؤمن بالله الواحد، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم»؛ هذه هى العبارة البسيطة الراسخة فى الإسلام. ولم تضعف الفكرة العقلانية عن الله قط بسبب أى صنم مرئى. كما أن أمجاد النبى صلى الله عليه وسلم لم تنتقص أبدا من قدر الفضائل الإنسانية ومكانتها.

١١. المهاتما غاندى، زعيم الهند، يقول عن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم فى مجلة «الهند الفتية»:

كنت أريد أن أعرف أعظم رجل يحكم اليوم، بلا منازع، قلوب ملايين الناس. وقد ازددت اقتناعا بأن السيف لم يكن هو الذى أكسب الإسلام مكانا فى نظام الحياة آنذاك.

إن بساطة عيش النبى صلى الله عليه وسلم، وحرصه الشديد على الوفاء بوعوده، وإخلاصه وتفانيه الكبيرين تجاه أصدقائه وأتباعه، وشجاعته، وجرأته، وثقته المطلقة بالله فى رسالته؛ هى التى كسبت لهم كل شىء وتغلبت على كل عقبة، لا السيف. وعندما أغلقت الجزء الثانى من كتاب «سيرة النبى صلى الله عليه وسلم»، شعرت بالأسف لأنه لم يبق لدى شىء آخر أقرؤه عن حياة هذا الرجل العظيم.

١٢. آنى بيسانت، عالمة الاجتماع والمتصوفة والناشطة فى حقوق المرأة والكاتبة البريطانية، تقول فى كتاب «حياة محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه»:

إن كل من يدرس شخصية نبى العرب العظيم صلى الله عليه وسلم، ويعرف كيف كان هذا النبى صلى الله عليه وسلم يعيش، وكيف كان يعلم الناس، يستحيل عليه ألا يشعر بالاحترام تجاه هذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم، أحد أعظم الرسل الذين بعثهم الله.

١٣. المستشرق الألمانى الدكتور غوستاف فايل (Gustav Weil):

يكتب فى كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية»:

«كان محمد (صلى الله عليه وسلم) أسوة وضاءة لقومه؛ فقد كانت شخصيته نقية خالصة لا تشوبها شائبة، وتميز بيته، ولباسه، وطعامه ببساطة نادرة. وكان متواضعًا عازفًا عن التكلف إلى حد أنه لم يكن يقبل من أصحابه أى مظهر خاص من مظاهر التبجيل، ولا يرتضى أن يقوم خادمه بأى عمل كان بمقدوره أن يؤديه بنفسه. وكان متاحًا للجميع فى كل آن، يعود المرضى،

ويفيض قلبه رحمة ومواساة للناس كافة. ولم تكن لفضله وجوده حدود، كما كان شديد الحرص والاهتمام بصلاح المجتمع وسعادته».

١٤. غوته (Goethe):

نظم الشاعر الألمانى الشهير غوته، عقب اطلاعه على تعاليم الإسلام وشخصية نبيه العظيم، قصيدة بديعة بعنوان «أنشودة محمد» (*Mahomets Gesang*) فى مدح النبى الأعظم صلى الله عليه وآله. وتجرى هذه القصيدة على لسان أقرب الناس إلى النبى وألصقهم به، وهما الإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء عليهما السلام؛ حيث استعرض غوته مراحل دعوة الرسول وهدايته للبشرية بلغة شعرية مفعمة بالرموز والاستعارات البليغة.

تتمحور القصيدة حول جلاء الشخصية النبوية السامية برواية هذين الوجودين الفريدين فى تاريخ الإسلام، مع إبراز المسار التاريخى للرسالة واتساع رقعة الإسلام فى الآفاق. وتُختتم القصيدة بإيمان الشاعر بالمعاد والخلود، ويقينه الراسخ بانتصار رسالة النبى الخاتم صلى الله عليه وآله وإشراقها الأبدى. ولعل هذا الشغف العميق بسيرة النبى ورسالته هو الذى قاد مفكرًا غربيًا — وسط خضم التيارات الفلسفية المادية المتصارعة فى عصره — إلى الانجذاب نحو المعانى الروحية والآفاق السامية للإسلام.

وفيما يلى مقطع من قصيدة «أنشودة محمد»:

«انظر إلى ذلك الينبوع المتفجر

يتدفق من قمم الجبال الشامخة

كم هو نضر ومشرق!

يفيض متلألئًا كعيون النجوم الساطعة،

وبخطى رائدة هادية،

يستنهض معه سائر الجداول والينابيع

لتسير فى ركابه إخوانًا...

وهناك فى أعماق الوادى السحيق،

تتفتح الأزهار تحت موطئ هذا النهر،

وتبعث الرياض وتخضرّ بنفحات حياته...».

١٥. جون إسبوزيتو (John L. Esposito):

«يجب أن يُدعى منقذ البشرية. وإننى على يقين بأنه لو قُدّر لرجل مثله أن يتولى زمام الحكم فى العصر الحديث، لحل مشكلاته بالسلام والمودة. لقد كان أعظم رجل وطئت قدماه هذه الأرض؛ دعا إلى الدين، وأرسى دعائم حضارة، وبنى أمة، ورسخ الأخلاق، وأقام مجتمعًا حيًا وقويًا لتطبيق تعاليمه على أرض الواقع، وأحدث تحولًا شاملًا وأبديًا فى عالم الفكر والسلوك الإنسانى.

اسمه "محمد"؛ وُلد فى الجزيرة العربية عام ٥٧٠ للميلاد، وبدأ رسالته بالدعوة إلى دين الحق (الإسلام) وهو فى الأربعين من عمره، وودع الدنيا فى سن الثالثة والستين. وخلال مدة رسالته الوجيزة البالغة ثلاثة وعشرين عاماً، هدى الناس إلى عبادة الإله الواحد، وأنقذهم من الحروب والنزاعات القبلية ليبلغ بهم مرتبة الاتحاد والتضامن. وقادهم خلال هذه المدة من المجون والسكر إلى العفة والتقوى، ومن الفوضى والانفلات إلى النظام والانضباط، ومن الانحطاط إلى أسمى معايير السمو الأخلاقى. ولم يشهد التاريخ البشرى قط مثل هذا التحول الجذرى الشامل على يد شخص واحد، فى أى زمان أو مكان، قبل نبى الإسلام صلى الله عليه وآله أو بعده؛ وإن تصور كل هذه الخوارق المذهلة المنجزة فى غضون هذين العقدين لأمر يثير الدهشة والإعجاب».

١٦. ألفونس دو لامارتين (Alphonse de Lamartine):

يقول المؤرخ والكاتب الفرنسى الشهير:

«إذا كانت عظمة الغاية، وضآلة الوسائل، وعظمة النتائج المذهلة، هى المحاور الثلاثة لقياس عبقرية الإنسان، فمن ذا الذى يدعى مقارنة عظماء التاريخ الحديث بـ "محمد"؟ إن أشهر الشخصيات لم تؤسس إلا الجيوش، والقوانين، والإمبراطوريات؛ وإن لم نقل إن ما شيدوه لا يُذكر، فإنهم لم ينشئوا سوى قوى مادية سرعان ما انهارت فى طرفة عين.

أما هذا الرجل، فلم يكتفِ بتحريك الجيوش، والقوانين، والإمبراطوريات، والشعوب، والسلالات الحاكمة، بل حرك ملايين البشر، أى ما يعادل ثلث سكان المسكونة آنذاك بل وأكثر من ذلك. لقد غيّر المعابد، والآلهة، والأديان، والعقائد، والأفكار، والنفوس.

وإن صبره فى النصر، وعلو همته التى انصبت بكليتها لخدمة العقيدة دون أدنى سعى إلى الملك والسلطان، وصلواته التى لا تنقطع، ومناجاته السرية لخالقه، وموته وانتصاره بعد مماته؛ كلها شواهد على إيمان راسخ لا يتزعزع.

لقد جمع محمد صلى الله عليه وآله فى شخصه صفات المعلم الدينى، والمصلح الاجتماعى، والقائد الأخلاقى والروحى، والنموذج الإدارى الفذ فى تنفيذ المهام، والصديق الوفى، والعشير النبيل، والزوج المحب، والأب الرؤوف؛ فاجتمعت له هذه المقامات جميعًا. ولا يوجد رجل آخر فى التاريخ يضاهيه أو يسبقه فى كل جانب من هذه الجوانب المتعددة للحياة؛ ووحده ذلك الوجود الإنسانى العظيم استطاع أن يجمع بين جنبيه هذه الكمالات المذهلة».

١٧. كارين أرمسترونغ:

السيدة كارين أرمسترونغ من كبار الباحثين فى الأديان. بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠٢م، ألفت كتاباً عن حياة النبى محمد صلى الله عليه وسلم، صنّف ضمن أكثر الكتب مبيعاً فى أمريكا وأوروبا. كان دافعها الرئيسى فى كتابة هذا العمل هو الدفاع عن الإسلام وتنوير عقول المسيحيين الغربيين حول شخصية نبى الإسلام. وقد جاء فى مقدمة كتابها:

«لقد انصرف جُلّ همّ النبى إلى منع النزاعات الوحشية؛ فكلمة الإسلام، التى تعنى التسليم لله، مشتقة من جذر "سلام". لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم رجل جهاد، لكنه كان أيضاً رجل سلام حقيقى؛ إذ خاطر بحياة أقرب أصحابه ومعتقداتهم خلال صلح الحديبية لضمان تحقيق هذا الاتحاد دون إراقة دماء. فبدلاً من القتل وسفك الدماء، كان يفكر فى التفاوض والسلام. إن الوعى بالقصة الحقيقية لحياة النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه المرحلة الخطيرة من التاريخ البشرى أمر ضرورى، ولا ينبغى السماح للمتعصبين المغرضين بتحريف حياته لخدمة مصالحهم. فإنسان الغرب المعاصر يمكنه أن يستقى من قصة حياة النبى دروساً بالغة الأهمية لهدايته فى هذا العالم المتغير».

١٨. كارل ماركس:

الحقيقة التى لا تقبل الإنكار هى أن محمداً صلى الله عليه وسلم بُعث ليقدم للعالم رسالة هى خلاصة الرسالات السابقة وذروتها.

١٩. ألكسندر دوما:

كان محمد صلى الله عليه وسلم معجزة الشرق؛ فدينه احتوى على تعاليم عظيمة، وكان صاحب أخلاق رفيعة وسلوك قويم.

إن هذا النبى الذى افتتح برسالته عصر العلم والنور والمعرفة، يستحق أن تُدوّن كل أقواله وأفعاله بأسلوب علمى رصين. لقد كان مأموراً بتعاليمه السماوية أن يمحو كل الأوهام والخرافات والأفكار العبثية التى أضافها الجاهلون أو من يدعون العلم إلى الأديان السابقة.

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً نهض بإرادة فولاذية من بين قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وزرع فى قلوبهم روحاً خالدة. لذا، لا ينبغى أن نعدّه من بين الرجال العظماء والمبرزين فى التاريخ فحسب، بل من الواجب أن نعترف بنبوته، وأن نؤمن من أعماق قلوبنا بأنه رسول الله.

٢٠. ألفرد غيوم:

محمد صلى الله عليه وسلم واحد من أعظم الشخصيات التاريخية، التى استغرقت فى الإيمان بوجود الإله الواحد.

٢١. ليو تولستوى:

لا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم من الرجال العظماء والمصلحين الذين قدموا للبشرية خدمة جليلة بحق.

٢٢. واشنطن إيرفينغ:

كان سريع البديهة، قوى الذاكرة، بعيد النظر، يتمتع بموهبة فائقة واستعداد فذ.

٢٣. الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau):

«كان لنبى الإسلام محمد رؤية أعمق ونظر أصوب، حيث استطاع أن يربط نظامه السياسى بإحكام ويصهر أركانه فى وحدة متماسكة».

٢٤. المؤرخ والمفكر الإسكتلندى توماس كارلايل (Thomas Carlyle):

يعود كارلايل فى كتابه «الأبطال وعبادة البطولات» ليفصل فى شخصية النبى صلى الله عليه وآله قائلاً:

«أتقولون إنهم اتخذوه نبيًا؟ نعم! لقد كان ماثلًا أمام أعينهم، فردًا بمفرده، جليًا واضحًا، لم يتلفع بأستار الأسرار والرموز الكهنوتية المصطنعة؛ بل كانت حياته مكشوفة مشهودة: يغسل ثوبه بيده، ويخصف نعله بنفسه، ويخوض غمار المعارك، ويستشير أصحابه، ويقضى بينهم ويسوس أمورهم.

لقد رأوه عيانًا وعرفوا أى رجل كان! سمّوه ما شئتم؛ فما من إمبراطور توّج بالتيجان وحفّت به أبهة الملك كان مُطاعًا ومهيبًا فى قلوب قومه مثل هذا الرجل الذى كان يرقّع ثوبه بيمينه. إن رجلًا كابد لأكثر من ثلاثة وعشرين عامًا صنوف المشاق والمحن، وخاض تلك الاختبارات العملية الشاقة، لجدير بأن أعدّه بحق "بطلًا"، وهو أحق الناس بهذا الوصف واللقب».

٢٥. المستشرق والباحث البريطانی جون دافنبورت (John Davenport):

يكتب فی كتابه الشهير «اعتذار إلى محمد والقرآن» (An Apology for Mohammed and the Koran) الصادر فی لندن عام ١٨٦٩م:

«إن الكتاب الذين انقادوا لداعی التعصب الأعمى فضلّوا السبيل واجترؤوا على النيل من السمعة العطرة لمحيی شريعة التوحيد، لم يثبتوا فقط أن روح المحبة الخالصة التی جسدها المخلص (المسيح) — وثبت عليها بكل أناة واقتدار — لم تؤثر فی نفوسهم، بل جانبوا الصواب تمامًا فی أحكامهم النقدية؛ إذ كان يكفيهم أدنى تأمل ليدركوا خطأ محاكمة النبی وتعاليمه من منظور مسيحی بحت أو بمنظار الفكر الأوروبی الغربی، بل ينبغی وزن هذه الدعوة بموازين البيئة الشرقية، ودراسة شخصية محمد بوصفه مصلحًا دينيًا ومشرّعًا عظيمًا نهض فی آسيا خلال القرن السابع الميلادی.

وحينئذٍ لا نكون منصفين، بل نرتكب إجحافًا عظيمًا، إن لم نعدّه من نوادر الدهر ومن أطهر النوابغ الذين أنجبتهم البشرية عبر تاريخها؛ بل يتعين اعتباره الشخصية الأعظم والفريدة التی يحق لقارة آسيا أن تفخر وتعتز بإنجابها.

وإننا متى ما وازنّا بين حال العرب قبل بعثته وما أضحوا عليه بعد نهضته، وأمعنّا النظر فی جذوة الحب والولاء التی أوقدها فی أفئدة أتباعه وما تزال متقدة إلى يومنا هذا، لأدركنا جليًا أن الإعراض عن تبجيل هذا الرجل العظيم والاستنكاف عن تكريمه ضرب من الجحود ومجافاة الإنصاف».

٢٦. الجنرال السير بيرسی سايكس:

يكتب المؤرخ الإنجليزی الشهير فی كتابه «تاريخ إيران»: «فی اعتقادی الشخصی، إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو أعظم إنسان فی تاريخ البشرية، فقد نذر كل حياته، انطلاقاً من مبدأ سامٍ، للقضاء على الشرك وعبادة الأصنام من العقول، وإرساء قيم الإسلام الرفيعة مكانها. وإننی لأنحنی إجلالاً وتقديراً للخدمة الجليلة والواضحة التی قدمها للبشرية من هذا الطريق».

٢٧. جواهر لال نهرو:

يقول رئيس وزراء الهند الأسبق فی كتابه «نظرة على تاريخ العالم»: «لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم متعجلاً فی نشر رسالته، بل عاش فترة من الزمن فی صمت وتأمل، حتى نال إعجاب وثقة مواطنيه، لدرجة أنهم لقبوه بـ "الأمين". لقد كان مؤمناً بنفسه وبرسالته، وبهذا الإيمان وتلك الثقة، هيأ لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة، وحوّلهم من مجرد قبائل تعيش فی الصحراء إلى سادة فتحوا نصف العالم المعروف آنذاك».

٢٨. هاملتون غيب:

يكتب الأستاذ بجامعتی لندن وأكسفورد: «لكن ما كان أكثر إثارة للدهشة من سرعة الفتوحات هو نظامها وترتيبها. فخلال سنوات الحرب، كان من المفترض أن يقع دمار وخراب، إلا أن العرب [المسلمين] لم يتركوا آثاراً للدمار، بل مهدوا الطريق لاندماج الأمم والثقافات. لقد أثبت نظام الحكم والقانون الذی تركه محمد صلى الله عليه وسلم لخلفائه قيمته فی ضبط وإدارة أعمال هذا الجيش البدوی. لم يدخل الإسلام إلى العالم المتمدن كخرافات ساذجة لقبائل غازية، بل قُدّم كقوة أخلاقية أثارت احترام الجميع، وكنظام منطقی قادر على منافسة المسيحية فی الإمبراطورية البيزنطية والديانة الزرداشتية فی إيران، كلاً فی أرضه وموطنه الأصلی».

٢٩. البروفيسورة آن ماری شيمل:

تكتب المستشرقة الألمانية المعاصرة: «إن هذا الطموح للاقتداء بمحمد صلى الله عليه وسلم هو ما منح المسلمين، من المغرب إلى إندونيسيا، هذا التجانس فى السلوك. فكل فرد، أينما كان، يعرف كيف يتصرف عند دخول المنزل، وأى عبارات المجاملة يستخدم، وما الذى يجب تجنبه فى الجلسات، وكيف يأكل، وكيف يسافر... لقد نشأ الأطفال المسلمون لقرون على هذه الأنماط، ولم ينهد هذا العالم التقليدى إلا مؤخراً بفعل وطأة الثقافة التكنولوجية الحديثة».

٣٠. ريفيريند بوسورث سميث:

يقول الأستاذ بجامعة أكسفورد: «كان محمد صلى الله عليه وسلم حاكماً وقائداً دينياً فى آن واحد، حاكماً بلا حرس أو تشريفات، بلا حراس شخصيين، بلا قصور أو بلاطات، وبلا مخصصات أو رواتب مقررة. إذا كان هناك من حكم فى التاريخ بعدل وإنصاف، فهو محمد صلى الله عليه وسلم. لقد نال السلطة المطلقة دون أدوات القوة التقليدية ودون دعم مسبق».

٣١. البروفيسور كيه. إس. راما كريشنا راو:

يقول أستاذ الفلسفة الهندى: «من الصعب جداً أن ندرك أبعاد شخصية محمد صلى الله عليه وسلم بشكل كامل. سألقى نظرة موجزة: محمد هو النبى، ومحمد هو التاجر، ومحمد هو الحاكم، ومحمد هو الخطيب، ومحمد هو المصلح، ومحمد هو ملاذ اليتامى، ومحمد هو حامى وناصر العبيد والنساء، هو القاضى والعادل، وهو النبيل والشريف. وخلاصة القول، إن كل هذه الأدوار فى مختلف مجالات النشاط البشرى تثبت أنه بطلٌ بكل ما تحمله الكلمة من معنى».

٣٢. ديوان تشاند شارما:

يقول العالم الهندى فى كتابه «نبى الشرق» (ص ١٢): كان محمد صلى الله عليه وسلم روحاً للرحمة والشفقة، لم يكن أكثر من إنسان ولا أقل، بل كان شخصية ذات هدف مقدّس؛ وهو توحيد البشر على عقيدة التوحيد، وعبادة الله الواحد، وتعليم طريق الإنسانية والإيمان الراقى المستند إلى أوامر الله. لقد كان دائماً يعتبر نفسه عبداً ورسولاً لله، وكانت كل أعماله خالصة لوجه الله.

٣٣. مايكل إتش هارت:

يقول أستاذ علوم الفلك والفيزياء وتاريخ العلوم: إن اختيارى لمحمد صلى الله عليه وسلم فى قائمة المائة شخصية الأكثر تأثيراً فى العالم قد يبدو مفاجئاً لبعض القراء ومثيراً للتساؤل لدى آخرين، لكن يجب أن نعلم أنه الرجل الوحيد فى التاريخ الذى نجح نجاحاً باهراً على الصعيدين الدينى والدنيوى.

٣٤. جون برناس:

يقول عالم الأديان الشهير: يستمد العالم الإسلامى بأسره أصوله الأساسية وقوانينه الأخلاقية من منبع القرآن. لقد فكّر محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً فى سلوك وأفعال أتباعه، ويجب القول إنه وضع لهم منهجاً قانونياً واضحاً وصريحاً يسير نحو هدف واحد، ألا وهو الارتقاء بمستواهم الأخلاقى؛ إذ رفع مكانة العرب من حالة الصراع والشقاق القبلى القديم إلى مستوى الأخوة والتضامن العام. وبناءً على ذلك، فإن تصرف كل مسلم ومسلمة، من المهد إلى اللحد، موجه نحو ذلك الهدف. فالأحكام التى جاء بها النبى فى تحريم الخمر والمقامرة، والقوانين التى وضعها فى العلاقات الزوجية، هى دستور للحياة الاجتماعية للأفراد، وقد رفع مكانة المرأة إلى مرتبة عالية، ومنذ ذلك التشريع، أحدث هذا المُشرّع العظيم تغييراً جذرياً فى حياة أتباعه.

٣٥. ويليام سوير:

يقول الأديب والعالم الإنجليزى فى كتابه «سيرة محمد»: إن محمداً صلى الله عليه وسلم، بوضوح منطقه ويُسر شريعته، يتصدر قائمة عظماء العالم. لقد أذهل العقول بأعماله الجليلة، ولا يعرف التاريخ مصلحاً مثله استطاع فى وقت وجيز أن يوقظ البشرية النائمة، وأن يشيّع الأخلاق الحميدة، ويضفى قيمة على العلم والفضيلة.

٣٦. إدوارد غيبون:

يقول أعظم المؤرخين الإنجليز: إن أعظم عوامل نجاح النبى فى حياته ورسالته كان قوة تواصله الصادق والمخلص، لا القوة الغاشمة أو سطوة السيف.

٣٧. كونستان:

يقول كونستان: خلافاً لرأى بعض الباحثين المسلمين، أرى من وجهة نظر خبير عسكرى أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يُهزم فى معركة أحد؛ لأن جيش قريش لم يستطع القضاء على جيش محمد، ولم ينجح فى احتلال المدينة، وهما شرطان أساسيان للنصر. فقد عاد محمد بجيش منظم إلى المدينة وأدار شؤونها. ويضيف أن تكتيك محمد فى معركة الخندق لا يثير دهشة الناس العاديين فحسب، بل يحير الخبراء العسكريين أيضاً، فكيف استطاع نبى الإسلام استنباط ذلك التكتيك الحربى وتنفيذه فى الوقت المناسب؟ ففى الحرب، لا يعتبر استنباط التكتيك وحده دليلاً على العبقرية، فهناك من يجلس فى بيته ويرسم الخطط للحروب على الورق ويهزم العدو بمناوراته، لكنه لا يستطيع تنفيذ أى منها فى ميدان المعركة.

٣٨. آنى بيسانت:

تقول زعيمة المؤتمر الوطنى الهندى: كل من يدرس حياة وشخصية نبى العرب العظيم، ويعرف كيف ربّى الناس وكيف عاش، يستحيل ألا يقع فى حبه ويكون مفتوناً به. لقد كان أحد الأنبياء العظام. وأنا أشعر بما أقول، فكلما قرأت عنه، أكتشف تعريفاً جديداً له، وأشعر فى داخلى بعلاقة جديدة تجاه ذلك المعلم العربى العظيم..

الوحدة: عقيدة واستراتيجية للمجتمع السليم والمتطور

كان أسبوع الوحدة ولا يزال مناسبة ومنطلقا لإعادة النظر والتفكير، بمنظور جديد وديناميكي، في القضية الجوهرية المتمثلة في وحدة المجتمع والامة في مجالات الدين والمذهب والقومية والعرق والثقافة، بل والحضارة ايضا، وعلى المستوى الكلي.

وها هي الذكرى الميمونة والمباركة لميلاد خاتم المرسلين محمد المصطفى (ص) والامام جعفر الصادق (ع)، وتقارنها مع هذه المناسبة، تضفي مزيدا من العظمة والنورانية والقداسة على هذا الموضوع البالغ الاهمية.

ذلك النبي العظيم الشأن الذي جاءت رسالته امتدادا واستمرارا للمسيرة التوحيدية والبانية للانسان التي نهض بها جميع عظماء التاريخ والانبياء الالهيون، بل جاءت متممة لميثاقهم ومبشرة بتحرير البشرية تحررا كاملا من براثن الجهل والغفلة والظلم. كما ان امامة الامام الصادق (ع) تقع في المسار التكاملي نفسه لرسول الله، وهي منبع لا ينضب للعلم والحكمة والعرفان والفلسفة، ومرشد للحياة والرقي والكمال والتنمية.

وقد تحدث مفكرو الغرب والشرق، من مختلف الاديان والمذاهب والحضارات، كابن خلدون والمفيد والطوسي والطبرسي والمجلسي وويل ديورانت وابن رشد وغوستاف لوبون وغيرهم، عن فلسفة هذه الاطروحة وضرورتها وشمولها، وعن عقيدة جامعة ومتعددة الاطراف ذات مركزية جوهرية واحدة، تنبع من الالوهية والانسانية.

واذا تجاوزنا بعض الزخارف الجانبية ومظاهر الافراط والتفريط، وجب الاقرار بان طاقة جميع المجتمعات والاديان والحضارات تنشأ من الحق والحقيقة، وان توجهها ومنحاها جميعا هو الانسانية، بمعناها الاصيل والصادق والخالص.

ومن منظور الدين والعلم والثقافة، ومن منظور النخب والمثقفين فى العالم، وعلى الصعيد العابر للاديان والمذاهب والثقافات، فان الجميع موحدون قبل ان ينتموا الى فرقة او دين او مذهب او حضارة، وهم بشر قبل الحديث عن وحدانية الله وكونهم موحدين.

وكون جميع الناس من بنى آدم، وانتسابهم الى آدم ابى البشر (ع)، وسير افراد الخليقة من كل بقاع العالم فى طريق واحد نحو هدف انسانى سام، لا يتنافى البتة مع مقتضيات هذا النهج، من تنوع الاذواق والوسائل والمنافسات والامكانات والقدرات، وما بينها من تمايز وتعاون.

وما يبعث على القلق والاضطراب هو الجهل والغفلة، وعدم معرفة العدو، والوقوع فى شباك الشياطين ومثيرى الفرقة والانتهازيين، فضلا عن تعطيل الانسان طاقاته الذاتية وتغاضيه عن قدراته الانسانية والاستراتيجية الهائلة. وقد أبقت الاديان الالهية، ولا سيما الدين الاسلامى الحنيف والقرآن الكريم، باب التفاهم والحوار والدبلوماسية الفاعلة والديناميكية مفتوحا، باستثناء حالات مثل عدوان الاجانب والمستكبرين، واستهداف الكيان والوحدة والسلامة الاقليمية، وشرف الناس وعزتهم، وسياسات الاستعباد والاستغلال.

ان ارسال الرسل وانزال الكتب، الذى تجلى مظهره وصورته الكاملة والنهائية فى شخص النبى محمد (ص) وكتاب القرآن، الذى هو تبيان لكل شىء، كان ولا يزال من اجل الهداية والحق، ومحو الظلمة والجهل والاجحاف، واقامة العدل والانصاف ومحبة الحقيقة، وتهذيب النفوس، والتعليم والتعلم، وتحقيق النضج والرقى.

ومن مكونات المشروع التكاملى والارتقائى للانبياء، ومن بعدهم الائمة والانسان المحب للسلام والمصلح والمحسن الى الناس والباحث عن العلم: فك قيود الجهل والتخلف عن ايدى الافراد وارجلهم وعقولهم وقلوبهم، ووصل الارض بالسماء، والنفاذ الى باطن الاشياء وكنهها والعوالم الملكوتية، وتحويل هذا العالم الى جنة موعودة، والالتفات الجوهرى لا الشكلى الى ابعاد الحياة البشرية التكاملية، التى تتمثل غايتها النهائية فى الآخرة والقيامة.

ومن اهداف ودوافع الانبياء وائمة الهدى، ومنهم رسول الاسلام الكريم (ص) والامام الصادق (ع)، ان يعى الناس ذلك الكنز الذى اودعه الله فى خفاياهم وفطرتهم، وان يصلوا اليه. وليس عبثا ان يكون كلام رسول الرحمة، والقرآن الكريم، ومدرسة الامام جعفر الصادق (ع) وجامعته، حافلة بالعلوم والمعارف والحكم، بل ومتقدمة على القرون والعصور.

وان استمالة قلوب الناس فى العالم، وانتشار الاسلام وتعاليم القرآن فى اقصى بقاع الارض، وانجذاب امثال رينيه غينون وغورغيو وغوستاف لوبون وآنه ماري شيميل الى شخص النبى والقرآن، واعتقاد العلماء الغربيين بان «محمدا نبى ينبغى ان يعاد اكتشافه ومعرفته»، كل ذلك دليل على هذه الحقيقة.

وكذلك، يكتب ابن خلكان، المؤرخ الشهير، فى عظمة الامام الصادق (ع) وجلالته: «هو احد الائمة الاثنى عشر عند الامامية، ومن كبار اهل بيت النبى (ص). ولصدقه واستقامة كلامه سمى بالصادق. وفضله وعظمته اشهر من ان يحتاجا الى بيان. وكان فريدا بين ائمة عصره... وقد نشأ فى ذلك العصر شغف علمى غير مسبوق فى المجتمع الاسلامى، وظهرت علوم متنوعة، منها العلوم الاسلامية، كعلم قراءة القرآن والتفسير والحديث والفقه والكلام، ومنها العلوم البشرية، كالطب والفلسفة والفلك والرياضيات وغيرها».

والامل معقود على ان تشهد المجتمعات البشرية، ولا سيما المجتمع الموحد والمسلم، وايران العزيزة، وحدة حقيقية راسخة، مقترنة بالنمو والتنمية والكمال فى جميع المجتمعات.

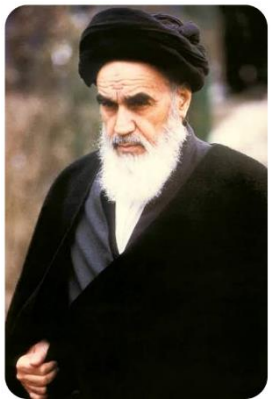

وحدة العالم الإسلامی من منظور الإمام الخمینی (قده)

مــقدمه

على الرغم من مرور قرون على عظمة الحضارة الإسلامية ومجدها وبهائها، فإن كثيراً من المفكرين الغربيين يرون أن نمو الغرب وتطوره مدينان للإسلام. يقول مارتن كرامر عن العصر الذهبي للحضارة الإسلامية: «في عام ١٠٠٠م، لو لم يكن المرء يعرف اللغة العربية، لما كان بوسعه الادعاء بامتلاك المعرفة الحقيقية... لا ريب في أن السلالات الإسلامية كانت تمثل القوى العظمى سياسياً وعسكرياً واقتصادياً في ذلك العصر. ولو وُجدت جائزة نوبل في عام ١٠٠٠م، لكانت جميع هذه الجوائز تقريباً من نصيب المسلمين حصراً .(Fuller, ٢٠٠٤: ١) «غير أن هذا السراج المنير للحضارة الإسلامية قد خبا نوره منذ أمد بعيد؛ فهل تعود أسباب ذلك وعوامله إلى الداخل، أم أن عوامل خارجية هي التي أدت إلى ضعف العالم الإسلامي؟ وهل ستظل الحضارة الإسلامية في هجعتها، أم أنها ستستيقظ من جديد؟

يرى المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي في كتابه «الحضارة في ميزان الاختبار»: «إن الجامعة الإسلامية في سبات، لكن إذا ثار مستضعفو العالم ضد الهيمنة الغربية وانضووا تحت قيادة واحدة، فإن هذا السبات سينقشع؛ وقد يكون لنداء هذه الثورة أثر بالغ في إيقاظ الروح العسكرية الإسلامية، لينهض الإسلام مجدداً ويؤدي دوره التاريخي» (ولايتي، ١٣٨٤: ٢١٧).

يعدّ توينبي التحرر من التبعية والهيمنة الغربية ووجود قيادة موحدة في العالم الإسلامي شرطين أساسيين لإحياء هذه الحضارة العظيمة؛ وهو أمر لا يتحقق إلا بوحدة المسلمين. ومن وجهة نظر الإمام الخميني (قده)، فإن «الوحدة» تمثل فلسفة الوجود والغاية القصوى للحكومات: «إن تشكيل الحكومة إنما هو لحفظ النظام ووحدة المسلمين، كما تقول السيدة الزهراء (ع) في خطبتها إن الإمامة لحفظ النظام وتحويل فرقة المسلمين إلى اتحاد». ويحظى تجنب الخلاف والتمسك بالوحدة والتلاحم بين المسلمين بأهمية بالغة لدى الإمام الخميني (قده)، لدرجة أنه صرّح في فتوى له: «في الموقفين، تجب متابعة حكم قضاة الإخوة أهل السنة وتجزئ، حتى وإن علمتم بالخلاف قطعاً» (صحيفة الإمام، ج ١٠، ص ٦٢). كما يرى الإمام الخميني (قده)

أن «الدول الإسلامية لو اتحدت فيما بينها، فلن تكون بحاجة إلى أى شىء أو أى قوة فى ظل هذا الاتحاد» (من أقوال الإمام الخمينى (قده)، ٧/١٠/١٣٦٠هـ.ش).

الفصل الأول: الموقع الجغرافى والسكانى للعالم الإسلامى

يتألف العالم الإسلامى حالياً من نحو ستين دولة مستقلة تزيد نسبة المسلمين فيها عن خمسين بالمائة من إجمالى السكان، فضلاً عن وجود أقليات مسلمة فى دول أخرى، وهى منتشرة جغرافياً عبر أرجاء العالم (رجاء، ١٣٩٠: ٤٠). وتشغل الدول الإسلامية حالياً ٥٧ دولة من أصل ١٩٢ دولة فى العالم. ففى قارة أوروبا، وقبل تفكك يوغوسلافيا، كانت ألبانيا هى الدولة المسلمة الوحيدة فى أوروبا، وتزيد نسبة المسلمين فيها عن ٧٠ بالمائة من السكان، وقد كانت محط اهتمام القوى الاستعمارية والدول الكبرى نظراً لموقعها الجغرافى والاقتصادى والسياسى المتميز (أمير دهى، ١٣٨٤: ١٤٢). وبعد تفكك يوغوسلافيا، تُعد البوسنة والهرسك -التى يبلغ عدد سكانها ٤.٥ مليون نسمة وتبلغ نسبة المسلمين فيها ٤٤ بالمائة- ثانى دولة إسلامية فى أوروبا (كلى زواره، ١٣٧٢: ٥١٨).

أما فى قارة آسيا، ومن بين ٣٩ دولة آسيوية، تُصنَّف ٢١ دولة ضمن الدول الإسلامية. وتُعد إندونيسيا أكبر الدول الإسلامية الآسيوية مساحةً وأكثرها سكاناً (٢٢٢ مليون نسمة، بمساحة ٢,٠٤٢,٠٢٤ كيلومتراً مربعاً) (ناصرى داوودى، ١٣٨٤)، فى حين تُعد جزر المالديف أصغرها بمساحة ٢٨٩ كيلومتراً مربعاً. وتبلغ المساحة الإجمالية للدول الإسلامية فى قارة آسيا ١٠,١٦٣,٩٦٥ كيلومتراً مربعاً، وتصل إلى ١٤,٢٣١,٩٦٠ كيلومتراً مربعاً عند احتساب دول آسيا الوسطى المستقلة حديثاً. وفى قارة أفريقيا، ومن بين ٥٨ دولة أفريقية -باستثناء مصر التى نالت استقلالها عام ١٩٢٢م- نالت ١٩ دولة أخرى استقلالها خلال عقدى الخمسينيات والستينيات. وتبلغ المساحة الإجمالية لهذه الدول العشرين ١٥,٦٧٨,١٩١ كيلومتراً مربعاً، أصغرها جزر القمر بمساحة ١,٧٩٧ كيلومتراً مربعاً، وأكبرها السودان بمساحة ٢,٥٠٥,٨١٢ كيلومتراً مربعاً. وبناءً على ذلك، يشغل العالم الإسلامى من الناحية الجغرافية مساحةً معتبرة من الكرة الأرضية؛ إذ يمتد لنحو ١١ ألف كيلومتر طولاً، من أقصى نقطة فى غرب شمال أفريقيا وصولاً إلى جزر جاوة فى إندونيسيا، ونحو ٦ آلاف كيلومتر عرضاً، من شمال كازاخستان إلى جنوب السودان (عسكرى، ١٣٨٧).

وتقع الأراضى الإسلامية بين خطى طول ٢٠ درجة غرباً (من خط غرينتش) و١٤٠ درجة شرقاً، وكذلك بين درجتى عرض ١٠ جنوباً و٥٠ شمالاً بالنسبة لخط الاستواء. تقع أقصى دولة إسلامية فى الغرب فى غرب أفريقيا وهى السنغال، بينما تقع أقصى دولة فى الشرق وهى إندونيسيا فى جنوب شرق آسيا. وهناك فارق زمنى يتجاوز ١٠ ساعات بين أقصى دولة إسلامية فى الغرب وأقصى دولة فى الشرق. تُعد تركيا وألبانيا الدولتين الإسلاميتين الأكثر وقوعاً فى الشمال، بينما تُعد إندونيسيا الدولة الأكثر وقوعاً فى الجنوب، وهى أيضاً الدولة الإسلامية الوحيدة فى آسيا التى يقع جزء كبير منها فى نصف الكرة الجنوبى. وتتمتع دول مثل إندونيسيا والبحرين وماليزيا والمالديف وجزر القمر بوضع أرخبيل أو جزر، وعلى العكس من ذلك، هناك دول حبيسة لا تطل على بحار، مثل أفغانستان وبوركينا فاسو وتشاد وموريتانيا. وتبلغ مساحة دول العالم الإسلامى الإجمالية أكثر من ٢٦ مليون كيلومتر مربع (كلى زواره، ١٣٧٢: ٦١).

تستحوذ قارة آسيا على ٦٥ بالمائة من سكان المسلمين بين اليابسات الكبرى فى العالم، ويعيش ٢٥ بالمائة من المسلمين فى الدول العربية، و١٠ بالمائة فى أفريقيا. وتشكل إندونيسيا وبنغلاديش وباكستان وحدها أكثر من ٤٠ بالمائة من سكان العالم الإسلامى (المصدر نفسه، ٦٩). إندونيسيا هى الدولة الإسلامية الأكثر سكاناً، والمالديف هى الأقل سكاناً. ويبلغ متوسط الكثافة السكانية النسبية للدول الإسلامية نحو ١٠٣ أشخاص لكل كيلومتر مربع، حيث سجلت بنغلاديش أعلى كثافة بـ ٧٧٤ شخصاً لكل كيلومتر مربع، بينما سجلت الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية أدنى كثافة (المصدر نفسه، ٦٩). وقد قُدِّر سكان العالم الإسلامى بأكثر من مليار ومائتى مليون نسمة (عسكرى، ١٣٨٧).

الفصل الثانی: الوحدة فی الإسلام؛ أ) مفهوم الوحدة فی القرآن الکریم

إن «وحدة» الأمة الإسلامية تعنی تجسید الوحدة الإسلامية فی مجموع الأمة الإسلامية وفی سائر أرجاء العالم الإسلامی، بحیث تبشر فی نهایة المطاف بتکوین الأمة الإسلامية الواحدة: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (سورة المؤمنون، الآیة ٥٢).

وفی الفکر الدینی، لا یُقصد بالوحدة أبداً نبذ المذاهب الأخری، بل إن الوحدة الإسلامية هی توظیف أدوات تحقیق الأمة الواحدة کغایة سامیة علی مستوی المجتمعات والعالم الإسلامی: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (سورة الحج، الآیة ٧٨). وبناءً علی ذلک، ومن الناحیة المفهومیة، تشمل الوحدة الإسلامية -من حیث منهجها وأدواتها- جمیع عملیات صنع القرار، وصیاغة السیاسات، واعتماد المناهج الموحدة، والاستفادة من الإمکانات المشترکة، والتدابیر التی تؤدی نتیجتها ومآلها إلی تحقیق وحدة الأمة الإسلامية. ولهذا یقول تعالی: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (سورة آل عمران، الآیة ١٠٣).

ومن منظور الآیات القرآنیة، فإن وحدة کلمة الأمة الإسلامية هی وحدة دینیة وإسلامیة، وتُعتبر وسیلة وأداة لتحقیق الأهداف والمقاصد الدینیة والإلهیة. کما أنها تعتبر التفرقة والاختلاف فی الدین وزوال وحدة الأمة الإسلامية أمراً منافیاً لإقامة دین الحق والشریعة التوحیدیة، حیث یقول: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (سورة الشوری، الآیة ١٣). ومن ناحیة أخری، تذم الآیات بشدة أولئک الذین یسعون إلی إثارة الاختلاف أو لا یعملون علی إیجاد الوحدة بین الأمة الإسلامية، وتعتبرهم کالأمم السابقة التی مالت نحو الاختلاف بعد أن جاءتها البینات الإلهیة فاستحقت عذاباً عظیماً: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

وعلیه، فإن الوحدة من المنظور الدینی أمرٌ مطلوب ومُوصی به بشدة، بحیث تکون إقامة الدین فی ظل وحدة الأمة الإسلامية. وتُسمی هذه الوحدة فی نطاق الحکومات والمجتمعات الإسلامية وبین الشعوب المسلمة بـ «الوحدة السیاسیة» (فولادی، ١٣٨٧: ٧٧-٧٨).

ب) الوحدة الإسلامية فی رؤیة الإمام الخمینی (قده)

یبیّن الإمام الخمینی (قده) مفهوم الوحدة الإسلامية وإمکانیة تحقیقها قائلاً: إذا کان أتباع الرأسمالیة والشیوعیة، علی ما بینهما من تباین، قد اتحدوا، وإذا کان الیهود والنصاری یتغاضون عن خلافاتهم الجزئیة، فعلیکم أن تقفوا فی صف واحد دفاعاً عن إسلامکم (انظر: صحیفة الإمام).

ویری الإمام الخمینی (قده) أن الوحدة «عامل قوة» والتفرقة سبب لـ «وهن أرکان الدین»، ویحذر من أن «التفرقة القائمة بین الدول المسلمة ناجمة إما عن خیانة قادة البلدان الإسلامية أو عن جهلهم وغفلتهم» (انظر: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٢-٢٣٣). «لیس فی الإسلام مطرح للسنّی والشیعی، ولا مطرح للکردی والفارسی؛ نحن جمیعاً فی الإسلام إخوة» (المصدر نفسه، ج ٩، ص ٤١٩-٤٢٠). «فئة من المسلمین شیعة، وفئة أخری سنة؛ فئة حنفیة، وفئة حنبلیة، وأخری إخباریة... فی مجتمع یسعی فیه الجمیع لخدمة الإسلام ونصرته، لا ینبغی طرح هذه المسائل. نحن جمیعاً إخوة ویداً واحدة؛ ... وهذه الأمور لیست مبرراً للاختلاف. ولا یجوز أن یکون بیننا تنازع أو تضاد.

یجب علی الإخوة الشیعة والسنة تجنب أی خلاف. فالخلاف بیننا الیوم لا ینفع سوی أولئک الذین لا یؤمنون بالمذهب الشیعی ولا بالحنفیة ولا بسائر الفرق؛ فهم یریدون ألا یبقی هذا ولا ذاک، ویرون السبیل إلی ذلک فی إیقاع الخلاف بینکم وبیننا. وعلینا أن ندرک جیداً أننا جمیعاً مسلمون، وکلنا أهل قرآن وتوحید، ویجب أن نبذل جهودنا ونخلص فی خدمة القرآن والتوحید» (المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٥٤).

ويقول فى موضع آخر: «على المسلمين أن يلتزموا بالتعاليم الإسلامية، ويحافظوا على وحدة كلمتهم، وينبذوا الخلاف والنزاع الذى هو سبب هزيمتهم» (المصدر نفسه، ج ١٧، ص ٣٢٣). ومن وجهة نظر الإمام الخمينى (قده): «إن اليوم الذى تزول فيه هذه الوحدة سيكون هلاكاً لنا جميعاً، وذهاباً بكل نواميسنا، وهباءً لكل جهود الأنبياء -عليهم السلام- بالنسبة لبلدنا وبالنسبة لسائر البلدان» (المصدر نفسه، ج ١٧، ص ٤٠٦).

«إذا تحققت -إن شاء الله- تلك الوحدة بين المسلمين وحكومات الدول الإسلامية، التى أرادها الله تعالى ورسوله العظيم وأمرا بها وحثا عليها، فإن حكومات البلدان الإسلامية، وبدعم من الشعوب، تستطيع تكوين جيش دفاعى مشترك يفوق مئة مليون مقاتل احتياط مدرب، وجيش نظامى يضم عشرات الملايين تحت الراية، لتنال بذلك أعظم قوة فى العالم» (المصدر نفسه، ج ١٨، ص ٩٤). ويرى الإمام: «نحن بحاجة إلى الوحدة على مر السنين، ودائماً وأبداً. فالقرآن الكريم حين يأمرنا ويأمر المسلمين بالوحدة، لا يقصر ذلك على عام أو عقد أو قرن، بل هو لكل أرجاء المعمورة وعلى مدار التاريخ كله. ونحن بحاجة إلى تجسيد هذه الوحدة عملياً» (المصدر نفسه، ج ١٩، ص ٤٣٦). «إن الوحدة الدينية هى التى توجد هذا الاجتماع العظيم المتراص؛ فإذا كنتم حريصين على استقلال إيران، فتمسكوا بالوحدة الدينية» (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٨).

وتتجلى أهمية الوحدة لدى الإمام الخمينى (قده) فى قوله: «نحن مستعدون فى كل الأحوال للدفاع عن الإسلام والبلدان الإسلامية واستقلالها. وبرنامجنا هو برنامج الإسلام؛ وحدة كلمة المسلمين، واتحاد الدول الإسلامية، والتآخى مع جميع فرق المسلمين فى شتى بقاع الأرض، والتحالف مع سائر الدول الإسلامية فى العالم أجمع» (المصدر نفسه، ص ٣٣٦).

«إن سلاطين الإسلام تقع على عاتقهم مسؤولية جسيمة جداً، ولعلها تفوق مسؤولية سائر الطبقات؛ فالإسلام اليوم قد أودع بين أيدى هذه الطبقة بمقتضى مشيئة الله تبارك وتعالى -تكويناً- وهم مسؤولون عن حفظ الإسلام، وصيانة وحدة كلمة الإسلام، وحفظ أحكامه، ونشره والتعريف به» (المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠). والسبيل الوحيد لاستعادة عظمة الإسلام والمسلمين وعزتهم ومجدهم هو النهوض بمسؤولية حراسة الوحدة والأخوة الدينية، التى تعد الضامن الوحيد لاستقلال الأراضى الإسلامية (انظر: صحيفة الإمام). ويرى الإمام أن «سر انتصار المسلمين فى صدر الإسلام كان وحدة الكلمة ووحدة الإيمان» (انظر: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٤٤).

عقبات تحقيق الوحدة الإسلامية

١- الابتعاد عن الإسلام الأصيل

يعزو الإمام الخمينى (قده) مشاكل العالم الإسلامى إلى الابتعاد عن الإسلام الحقيقى، وعدم الاكتراث بتعاليم القرآن، وتغلغل الثقافة الاستعمارية، ووقوع الدول الإسلامية وقادتها تحت الهيمنة، والابتعاد عن حقائق الإسلام وعن العمل به، وغياب التفاهم الدولى بين الدول الإسلامية، وتبعية الحكومات الإسلامية، وتدخل القوى الكبرى. فلو استطاعت الحكومات والشعوب الإسلامية التغلب على هذه المعضلات والعقبات القائمة فى طريق العالم الإسلامى، لتمكنت من إيجاد قوة كبرى فى العالم تحت مسمى «العالم الإسلامى»؛ وهذا العالم لن يتشكل إلا من خلال الوحدة (عيسى نيا، ١٣٨٥: ١٠٦). فالوحدة والأخوة مع مختلف الفرق والمجموعات الإسلامية فى العالم، ومع الدول الإسلامية، هى من أجل محاربة الحكومات الاستكبارية فى العالم والكيان الصهيونى (داستانى، ١٣٨٠: ٥٧).

ويرى الإمام (قده) أن سبب كثرة مشاكل العالم الإسلامى هو أننا لا نعمل بالإسلام، فالعالم الإسلامى لا يطبق الإسلام (فى البحث عن الطريق من كلام الإمام، دفتر ١٥، ١٣٦٢: ٦). إذن، طريق النجاة للعالم الإسلامى يكمن فى العمل بالإسلام. ومن وجهة نظر الإمام الخمينى (قده)، فإن «أكبر ألم تعانى منه المجتمعات الإسلامية هو أنها لم تدرك بعد الفلسفة الحقيقية للعديد من الأحكام الإلهية؛ فالحج، بكل ما فيه من أسرار وعظمة، ما زال مجرد عبادة جافة وحركة عقيمة لا ثمر لها» (المصدر نفسه، ٦٧). يعزو الإمام الخمينى (قده) أسباب تعاسة العالم الإسلامى إلى أن هذه (الدول الإسلامية) تعتبر نفسها تابعة للإسلام،

لكنها فى الواقع لا تعرف شيئاً عنه؛ فالإسلام الذى يقول صراحة فى قرآنه بأنه لا ينبغى للمتسلطين والمستكبرين فى العالم والكافرين أن يهيمنوا على المسلمين، لا أثر له فى واقعهم (المصدر نفسه، ٦٢). «... ينبغى للشعوب أن تعود إلى صدر الإسلام، فإن عادت الحكومات مع الشعوب فذلك حسن، وإن لم تعد، فعلى الشعوب أن تفصل حسابها عن الحكومات» (المصدر نفسه، ٢٠-٢١).

ويرى الإمام الخمينى (قده) أن الطريق الوحيد والدواء الشافى لآلام المجتمعات الإسلامية هو إحياء «الإسلام المحمدى الأصيل» فحسب. فالإسلام الأصيل هو الذى يوحد المسلمين بمختلف أعراقهم ولغاتهم وقومياتهم. «الإسلام المحمدى الأصيل هو إسلام الفقراء المتألمين، إسلام المعذبين والمحرومين، إسلام من ذاقوا سوط الحرمان والتاريخ المر المخجل، إسلام الساحق للرأسمالية الحديثة والشيوعية الدموية، إسلام المحطم لإسلام الرفاهية والترف، وإسلام التقاط والمهادنة والدناءة، إسلام المترفين الذين لا يشعرون بالألم؛ وبكلمة واحدة: إنه إسلام أمريكا» (فى البحث عن الطريق من كلام الإمام، دفتر ١٤، ١٣٦٢: ٣٤٠). والإسلام الأصيل فى فكر الإمام الخمينى (قده) هو منظومة ومجموعة فكرية وعملية شاملة تتمتع بغنى مطلق، وتقدم برامج دقيقة وشاملة ترتبط بحياة الإنسان (مجموعة أعمال مؤتمر دراسة الأسس الفقهية للإمام الخمينى، ج ١٣، ١٣٧٤: ٤٥).

٢- الحكومات المتغطرسة والمستبدة والتابعة فى الدول الإسلامية

الحكومات والأنظمة المستبدة فى البلدان الإسلامية تخلّ بالحرية ولا تنسجم مع المصالح الشعبية، وهى حكومات تابعة ومعادية للشعب، وتشكل العائق الرئيسى أمام التحركات الوحدوية المنسجمة مع مصالح العالم الإسلامى. لذا، فإن التحرر من نير الأنظمة المعادية للشعب يعد أحد الأركان الأساسية فى الفكر السياسى للإمام الخمينى (قده) فى نظرية الوحدة. «إن الإطاحة بالطاغوت، أى القوى غير المشروعة القائمة فى أرجاء الوطن الإسلامى، هى واجبنا جميعاً. فيجب أن تحل المؤسسات الخدمية العامة محل الأجهزة الحكومية الجائرة والمعادية للشعب، وأن تُدار وفقاً لقانون الإسلام، لكى يستقر الحكم الإسلامى تدريجياً» (فى البحث عن الطريق من كلام الإمام، دفتر أول، ١٣٦٢: ١٨٦).

يرى الإمام الخمينى (قده) أنه نظراً لكون هذه الحكومات غير منتخبة من قبل الشعب، فهى لا تولى اهتماماً لمبدأ الوحدة؛ لأنه «لو كان حكام الدول الإسلامية ممثلين عن الشعوب المؤمنة ومنفذين للأحكام الإسلامية، لنبذوا الخلافات الجانبية، ولتوقفوا عن التخريب وإثارة التفرقة، ولاتحدوا وأصبحوا يداً واحدة». وتلجأ الحكومات المستبدة، غالباً بسبب انقطاعها عن الشعب، إلى الاستعانة بقوى الهيمنة الأجنبية لتثبيت مواقعها فى البلاد؛ ومن هذا المنطلق، فإنها تخدم رعاتها الأجانب أكثر مما تخدم شعوبها.

إن الاعتماد على الدول الأجنبية والوثوق بها يجلب الهوان والتحقير، ويؤدى إلى بروز التعصبات العرقية والقومية، ويفضى بدوره إلى اندلاع النزاعات الداخلية (موثقى، ١٣٧٨: ٣٠٩).

وقد مهد وجود الأنظمة الاستبدادية وافتقار البيئة إلى المؤسسات والركائز الديمقراطية، سواء الحديثة منها أو التقليدية، الأرضية لظهور الحركات السلفية المتشددة فى العالم الإسلامى، لا سيما فى العقود الأخيرة؛ إذ يعد استبداد كمال أتاتورك فى تركيا، ورضا خان فى إيران، وأيوب خان فى باكستان، وجمال عبد الناصر فى مصر، والأسرة السعودية فى المملكة العربية السعودية، وسوكارنو فى إندونيسيا، نماذج للحكم المطلق التى رفعت من جاذبية التوجهات الراديكالية والأصولية (هوشنكى، ١٣٨٩: ١٩٥). وتعانى معظم دول العالم الإسلامى، ولا سيما فى شبه الجزيرة العربية وآسيا الوسطى والقوقاز، من أزمة فى المشروعية السياسية؛ فانعدام ثقة قادة هذه الدول بشعوبهم وعدم اعتمادهم عليها من جهة، وسوء الظن بجيرانهم من الدول المسلمة من جهة أخرى، دفع هؤلاء الحكام إلى الاستعانة بالقوى الإقليمية والدولية لحفظ بقاء أنظمتهم السياسية. وقد نجم عن هذه التبعية السياسية إبرام معاهدات ثنائية ومتعددة الأطراف بين هذه الدول وقوى الهيمنة العالمية، وهى تحالفات تفرض التزامات معينة، جعلت البلدان المسلمة عاجزة عن اتخاذ قرارات سياسية واقتصادية مستقلة، لدرجة أن دول العالم الإسلامى تتخذ مواقف سياسية

متباينة حيال القضايا الدولية، وتعجز عن التوافق بشأن القضايا السياسية المشتركة، وفى مقدمتها وحدة العالم الإسلامى. وبوجه عام، فإن تبعية حكومات العالم الإسلامى المتنوعة للقوى الدولية فى الماضى والحاضر مهدت السبيل للتدخلات الخارجية، وعمقت الفجوات والانقسامات والتجزئة فى العالم الإسلامى، مسببة حالة من عدم الاستقرار، والتنافس، وتكريس الارتهان للدول غير الإسلامية (حافظ نيا وزرقانى، ١٣٩١: ١٥٠).

ويطرح ريتشارد ليتل (١٩٨٥)، بناءً على مفهوم «توازن القوى»، ثلاثة أنماط من الحكومات: ١- المتماسكة؛ ٢- المنقسمة؛ ٣- المضطربة أو الفاقدة للسلطة. فالحكومات المتماسكة هى حكومات قوية نسبياً، تُحفظ سلطتها بدعم الشعب أو على الأقل دون معارضته، وتتمتع بمشروعية واحتكار للسلطة. أما الحكومات المنقسمة فتبنى قوتها على الغلبة والهيمنة أكثر من احتكار السلطة. وأخيراً، الحكومات الغارقة فى الفوضى وهى من أضعف النماذج، حيث تتوزع فيها السلطة وتكون مشروعيتها غير مجدية، بحيث لا تملك أى فئة القدرة الكافية للسيطرة على السلطة المركزية، وتعيش هذه الدول فى واقع الأمر حالة من الحرب الأهلية (Buzan, ١٩٨٣: ٢١-٢٢).

وفى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر وصياغة استراتيجية الأمن القومى الأمريكى فى سبتمبر ٢٠٠٢، برز مفهوم «الدول الفاشلة» بصورة جدية فى صلب اهتمام الإدارة الأمريكية بوصفه تهديداً للولايات المتحدة (Carment, ٢٠٠٣: ٤٠٧). وتتجه الاستراتيجية الأمنية الأمريكية حالياً نحو هذه الدول؛ وعليه ستظل هذه البلدان بؤراً للأزمات فى العالم الإسلامى مستقبلاً، وربما تقع دول جديدة فى هذه الدوامة الأمنية.

ويعكس ذلك عملياً وجهاً جديداً للنزعات الإمبريالية فى النمط الحديث للسياسة الخارجية الأمريكية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (Morton & Bilgin, ٢٠٠٢: ٨٩)، وهو توجه يسعى إلى رسم صورة للولايات المتحدة كـ «إمبراطورية خيّرة» ليس لها غاية سوى حماية مصالح النظام الدولى (Kagan, ١٩٩٨: ٣٤-٢٤). وبالتبعية، فإن استمرار واشنطن فى هذه السياسات سيؤدى إلى تكريس حالة التشرذم والفرقة فى العالم الإسلامى؛ إذ أفرزت البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية لهذه الأنظمة أزمات تسهم القوى الغربية فى إدارة تصعيدها وتأجيجها (عيوضى، ١٣٨٧: ١٧١-١٧٢).

أما من حيث الممارسة الديمقراطية، فإن العالم الإسلامى ليس فى وضع ملائم؛ فوفقاً لمؤشر الديمقراطية الصادر عن مجلة الإيكونوميست لعام ٢٠٠٨، لم تدرج سوى ماليزيا وإندونيسيا ضمن الدول السبعين الأولى فى مؤشر الديمقراطية. وجاءت سنغافورة فى المرتبة ٨٢، وفلسطين والبوسنة والهرسك وتركيا فى المراتب ٨٥ و٨٦ و٨٧ على التوالى. بينما احتلت باكستان المرتبة ١٠٩، ومصر ١١٩، وأفغانستان ١٣٨، والسودان ١٤٦، والسعودية ١٦١ من أصل ١٦٧ دولة خضعت للتقييم، وهو مؤشر يبعث على التأمل البالغ لا سيما فيما يخص مصر والمملكة العربية السعودية (Economist, ٢٠٠٨).

٣- الخلافات الداخلية فى الدول الإسلامية

يتمثل التحدى الآخر الذى يواجه العالم الإسلامى فى نشوب الخلافات الداخلية. ويمكن تقسيم هذه الخلافات إلى ثلاث فئات رئيسية:

١- الخلافات القومية والقبلية والمذهبية؛

٢- الخلافات الناجمة عن وجود أقليات دينية وعرقية ولغوية؛

٣- الخلافات السياسية والأيديولوجية.

وفى هذا الصدد، يقول قائد الثورة الإسلامية:

«إن أخطر ما يهددنا اليوم فى العالم الإسلامى هو التفرقة... وهذه النقطة بالذات هى مكمن تضرر الصهاينة والأمريكيين، ولذلك كرسوا كل جهودهم ضدها. فالخلافات القومية والمذهبية والطائفية والسياسية والحدودية كلها نتاج تحريض الأعداء. لقد كانت أرضيات هذه الخلافات موجودة بيننا، غير أننا غفلنا عنها ولم نعمل على إزالتها، فاستغل الأعداء غفلة الأمة الإسلامية ليفاقموا هذه النزاعات ويوقعوا بيننا العداوة والبغضاء» (كلمة فى لقاء المشاركين فى مؤتمر العالم الإسلامى، ٢/١٠/١٣٧٦هـ.ش).

ويعد جزء كبير من النزاعات الإقليمية والحدودية فى العالم الإسلامى إرثاً مشؤوماً لحقبة الهيمنة الاستعمارية؛ إذ بقيت كجراح نازفة تعيق التئام هذه الأزمات السياسية، كما أن استمرارها فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يستنزف طاقات الشعوب الإسلامية وقدراتها.

ونتيجة للدور المحورى الذى لعبته القوى الاستعمارية فى ترسيم حدود الدول الإسلامية وطبيعتها المفروضة، فإن كثيراً من هذه الدول تعانى من نزاعات حدودية وإقليمية متبادلة.

وتواجه منطقة الخليج، بوصفها أكثر مناطق العالم الإسلامى حساسية، نماذج عديدة من هذه النزاعات؛ فالحدود البحرية لأغلب دول المنطقة لم تُحسم ولم تُرسم بصورة نهائية بعد. ولا تزال الخلافات الحدودية والإقليمية بين السعودية والإمارات العربية المتحدة، والإمارات وعمان، والسعودية وقطر، والسعودية واليمن، وغيرها عالقة دون تسوية (جعفرى ولدانى، ١٣٧٤: ١٣).

ويهدف بعض هذه الخلافات إلى تضليل الرأى العام وحرف الأنظار عن مساعى التقارب والوحدة؛ ومن ذلك الأطماع الإقليمية للإمارات العربية المتحدة فى جزء من الأراضى الإيرانية (الجزر الثلاث)، مما يثير تصريحات غير واقعية ويقوض مساحات التقارب فى العلاقات الثنائية والإقليمية، علماً بأن الإمارات تخوض نزاعات حدودية وإقليمية مع أغلب جيرانها (عسكرى، ١٣٨٢: ١٩٠).

ومن أمثلة النزاعات الإقليمية: الخلاف بين السعودية وعمان وأبوظبى حول واحة البريمى، أو ادعاءات العراق السابقة بشأن الكويت، ومزاعم الإمارات حول الجزر الإيرانية الثلاث، وغيرها. يضاف إلى ذلك الخلاف القائم بين تركيا وسوريا والعراق حول تقاسم مياه نهر الفرات، والنزاع فى حوض نهر الأردن بين لبنان وسوريا والأردن والكيان الصهيونى حول الموارد المائية، وكذلك الخلاف بين مصر والسودان وإثيوبيا فى حوض النيل. وبناءً على ذلك، تشكل النزاعات الحدودية والإقليمية أحد أبرز عوامل التباعد وغياب الوحدة فى العالم الإسلامى (حافظ نيا وزرقانى، ١٣٩١: ١٤٨).

٤- القومية المفرطة (الشوفينية)

أدت أيديولوجية القومية العلمانية دوراً فى تقسيم العالم الإسلامى وتجزئته، لكنها عجزت عن إكساب الشعوب المنفصلة هوية أو معنى حقيقياً. وكما أشار هشام شرابى: «تشير الفكرة القومية إلى منظومة من القيم اللادينية والأهداف السياسية المناهضة للإسلامية والعثمانية» (شرابى، ١٣٦٩: ١٢٠).

ويرى هشام شرابى أن القومية اللادينية الخالصة، بسبب إصرارها على أسسها العلمانية، «ظلت خارج المجرى الرئيسى للنشاط السياسى» (المصدر نفسه، ١٢٢).

ولم تكن لكثير من القيادات البارزة فى التيار القومى التركى والعربى أى صلة بالإسلام أو إيمان بمبادئه؛ فالقوميون الأتراك كانوا فى الغالب من يهود روسيا أو من الأتراك غير المسلمين القادمين منها، مثلما كان قادة الفكر القومى والعرقى فى البلدان العربية من مسيحيى لبنان المناوئين للوحدة الإسلامية. وقد استغلت القوى الاستعمارية هؤلاء الأفراد لبناء سياج من النزعة القومية حول الدول الإسلامية، من خلال إحياء أمجاد الحضارات القديمة وإعلائها؛ كالحضارة الفرعونية فى مصر، والفينيقية والآشورية فى العراق وسوريا، والطورانية فى تركيا، والعروبة فى البلدان الناطقة بالعربية، والفارسية فى إيران، فضلاً عن ترويج مذاهب وتيارات مثل الماركسية، والماسونية، والقاديانية، والبهائية، والكسروية، والشيخية، والوهابية، وغيرها؛ مما أذكى نار الخلافات بين الدول المسلمة وزعزع تماسكها عبر إشعال النزاعات الداخلية (حافظ نيا وزرقانى، ١٣٩١: ١٤٦).

وكانت القومية أحد أبرز العوامل التى أعاقت وحدة العالم الإسلامى. فالنزعة القومية فى جوهرها تصور فكرى فى مجتمع سياسى يقوم على المشتركات كالثقافة واللغة والتقاليد والروابط العرقية والقبلية. وقد تنحدر القومية أحياناً إلى الاستعلاء العرقى والقومى وهو ما يُعرف بالشوفينية أو القومية المتطرفة، وتنبثق منها مذاهب منحرفة كالفاشية والنازية (كاظمى، ١٣٧٠: ١٣٥-١٣٦).

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، انطلقت حركات التحرر وتنامت النزعة القومية فى الدول الإسلامية، ولا سيما فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ومما لا شك فيه أن أصابع الاستعمار الغربى كانت وراء تفشى هذه الظاهرة؛ إذ سعت أوروبا إلى فصل العرب عن الإمبراطورية العثمانية وتقويضها.

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبينما كانت النزعات «فوق القومية» تتصاعد بين الدول الأوروبية، اتجهت البلدان الإسلامية لمواجهة الاستعمار عبر تعزيز القومية وحشد الطاقات الوطنية، الأمر الذى قاد إلى تصفية الاستعمار فى آسيا وأفريقيا وظهور دول وطنية مستقلة. وبخلاف النمط الأوروبى الذى اتجه نحو التكامل والوحدة، اتسم النمط الثانى بالنزعة الانفصالية نتيجة الغلو فى القومية، مما أدى فى المحصلة إلى تقويض مسار التكامل والتقارب (مقتدر، ١٣٧٠: ٧٤-٨٢).

وقد وقعت معظم دول الشرق الأوسط العربية فى شباك هذا النمط من القومية تحت شعار «القومية العربية» الجذاب، فلم تسفر هذه النزعة عن إقصاء الدول الإسلامية غير العربية فحسب، بل أحدثت الفرقة والانقسام بين الدول العربية ذاتها (ولايتى وسعيد محمدى، ١٣٨٩: ١٧٢). ومع انكسار المد القومى العربى بعد نكسة ١٩٦٧ وتراجع الفكر القومى واليسارى فى الدول الإسلامية، برز تيار الصحوة الإسلامية كبديل فاعل ومؤثر فى أوساط الرأى العام بالشرق الأوسط والمجتمعات العربية (عطار زاده، ١٣٩١: ١٥٦). واكتسبت التيارات الإسلامية البديلة -متأثرة بالثورة الإسلامية فى إيران- موجة من الثقة بالذات تؤهلها لمواجهة الأعداء معرفياً وسياسياً وتأسيس الحكم الإسلامى (أحمدى، ١٣٨١). وأدى صعود الحركات الإسلامية بالتوازى مع أفول القومية العربية إلى بروزها على الساحة الإقليمية من جهة، ونأى الولايات المتحدة بنفسها عنها من جهة أخرى؛ وقد جعلت أحداث عقدى الستينيات والسبعينيات واشنطن تيأس من الإسلاميين وتتبنى سياسة المعايير المزدوجة تجاه الديمقراطية فى العالم الإسلامى، مما أوقع الولايات المتحدة فى «مفارقة الديمقراطية» (Gerges, ١٩٩٩).

٥- عداء الغرب للإسلام

حذّرت الكاتبة إيلين سيلينو القراء فى مقال لها بصحيفة نيويورک تايمز فى يناير ١٩٩٦ بعنوان «زال الخطر الأحمر، وأقبل خطر الإسلام»، داعيةً إلى النظر إلى الإسلام بوصفه «الخطر الأخضر» الذى يهدد مصالح الغرب (سعيد، ١٣٨٧: ١٩). وبتعبير فوكوياما: «إن الإسلام أيديولوجية متماسكة وواضحة، تمتلک منظومة أخلاقية ورؤية كونية محددة بشأن العدالة السياسية والاجتماعية. وتملک جاذبية الإسلام وقدرته على الاستقطاب أبعاداً عالمية كامنة؛ إذ يرى هذا الدين أن البشر جميعاً سواسية. وفى واقع الأمر، فقد هزم الإسلام الديمقراطية الليبرالية فى جزء كبير من عالمه، وبات يمثل تهديداً جديداً للأنظمة الليبرالية، حتى داخل البلدان التى لا يتولى فيها الإسلام مقاليد الحكم السياسى» (مردن، ١٣٧٩: ٢٤).

يقول صامويل هنتنغتون: «طالما ظل الإسلام إسلاماً (وهو ما سيكون بالتأكيد)، وظل الغرب غرباً (وهو أمر مشكوک فيه)، فإن الصراع الجذرى بين هاتين الحضارتين ونمطى العيش فيهما هو الذى سيحدد ملامح العلاقات بينهما فى المستقبل، تماماً كما جرى على مدى القرون الأربعة عشر الماضية» (برغر، ١٣٨٠: ١٢٩). ووفقاً للمنطق الهنتنغتونى، فإن العلاقات الدولية بصيغتها الراهنة القائمة على الدولة-الأمة ستفسح المجال فى المستقبل للعلاقات بين الثقافات، وبدلاً من نحو مائتى وحدة سياسية قائمة اليوم، ستبرز سبع أو ثمانى وحدات ثقافية تشمل الحضارات: الغربية، والهندية، والكونفوشيوسية، واليابانية، والسلافية، والأمريكية اللاتينية، وربما الأفريقية (افتخارى، ١٣٨٦: ٢٣-٢٤).

وقد اكتسب الصراع الثقافي، ولا سيما بين الغرب والمسلمين، زخماً وتسارعاً أكبر في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. فالغرب، الذي كان يبحث عن «آخر» ومهدد ثقافي لتوظيفه في خدمة مصالحه ومعادلاته الأمنية في المناطق المتأزمة من العالم، دأب على الترويج لمفاهيم «الأسلمة» و«الأصولية الإسلامية». واستمر هذا النهج في إطار التركيز على الأصولية الإسلامية واستخدام توصيفات أكثر حدة مثل «الإرهاب الإسلامي»، لإبراز المواجهة بين العالم الغربي والأصولية الإسلامية بوصفها مهدداً لمصالح النظام الرأسمالي ولمسار العولمة.

وتُقسّم «شيريل بينارد»، الباحثة في مؤسسة «راند» للدراسات، التيارات الإسلامية إلى أربع فئات رئيسية:

١) الأصوليون: وهم أعداء ألداء للغرب عموماً وللولايات المتحدة خصوصاً، ويسعون لتقويض الحداثة الديمقراطية، وما قد يلقونه من دعم غربي متقطع لا يمثل خياراً استراتيجياً بل مجرد اعتبارات تكتيكية عابرة.

٢) التقليديون: وهم أصحاب رؤية معتدلة، غير أن هناك تباينات جوهرية فيما بينهم؛ فبعضهم أقرب إلى الأصوليين، بيد أن أياً منهم لا يكنّ ميلاً حقيقياً للديمقراطية الحديثة أو لقيم الحداثة وثقافتها، وفي أقصى حالات التفاؤل، لا يمكن التعويل عليهم إلا بحذر شديد.

٣) الحداثيون: وهم الفئة الأقرب إلى الغرب من حيث القيم والتوجهات والسياسات.

٤) العلمانيون: ويعدون، على غرار الحداثيين، الأقرب إلى الغرب في منظومة القيم والسياسات، إلا أن موقعهم يعد الأضعف مقارنة بسائر التيارات نتيجة افتقارهم إلى قاعدة شعبية صلبة، وموارد مالية، وبنية تحتية فاعلة، ورؤية استراتيجية شاملة. ولا تنحصر مشكلة العلمانيين في عدم قبولهم كحلفاء ذوي قواعد أيديولوجية عريضة، بل تمتد إلى علاقتهم المتوترة والمتأزمة مع القطاع التقليدي في المجتمعات الإسلامية (المصدر نفسه: ٦٣).

د) سبل تعزيز الوحدة بين المسلمين

١- التركيز على المشتركات

يرى الإمام الخميني (قده) أن: «فئة من المسلمين شيعة، وفئة أخرى سنة؛ فئة حنفية، وفئة حنبلية، وأخرى إخبارية؛ وأصل طرح هذه المسألة لم يكن صحيحاً منذ البداية. ففي مجتمع يسعى فيه الجميع لخدمة الإسلام ونصرته، لا ينبغي طرح هذه القضايا. نحن جميعاً إخوة ويد واحدة؛ غاية الأمر أن علماءكم أفتوا بحكم ما فاتبعتم علماءكم وصرتم حنفية، وعملت فئة بفتوى الشافعي، وعملت فئة أخرى بفتوى الإمام الصادق فصاروا شيعة، وهذه الأمور ليست مبرراً للاختلاف. لا يجوز أن يكون بيننا تنازع أو تضاد، فنحن جميعاً إخوة. ويجب على الإخوة الشيعة والسنة تجنب أي خلاف. فالخلاف بيننا اليوم لا ينفع سوى أولئك الذين لا يؤمنون بالمذهب الشيعي ولا بالحنفية ولا بسائر المذاهب؛ فهم يريدون ألا يبقى هذا ولا ذاك، ويرون السبيل إلى ذلك في إيقاع الخلاف بينكم وبيننا. وعلينا أن ندرك جيداً أننا جميعاً مسلمون، وكلنا أهل قرآن وتوحيد، ويجب أن نبذل جهودنا ونخلص في خدمة القرآن والتوحيد» (صحيفة الإمام، ج ١٣، ص ٥٤).

ويرى الإمام الخميني (قده) أنه: «لو اتحدت هذه الدول الإسلامية، التي تملك كل شيء وتتمتع بثروات طائلة، لما احتاجت في ظل هذا الاتحاد إلى أي شيء أو أي دولة أو أي قوة. وإنما تظهر الحاجة حين تتفرق كما هي الحال اليوم، وتتباعد البلدان عن بعضها. فلماذا تتفرق هذه الدول ولديها مثل هذا السند العظيم المتمثل في القرآن الكريم والإسلام العزيز والله العظيم؟ ولماذا نحدث الفرقة في مواجهة الإسلام العزيز ولدينا هذا السند الذي يدعو دائماً إلى الوحدة وينهى عن التفرقة وإثارتها؟» (في البحث عن الطريق من كلام الإمام، دفتر ١٥، ١٣٦٢: ٤١-٤٢).

٢- الوحدة فی عین الكثرة

لا یری الإمام الخمینی (قده) ضرورة فی اندماج الدول وذوبانها فی كیان واحد، بل یری أن علی كل دولة -مع الحفاظ علی حدودها وسیادتها- أن تسعی إلی توحید الكلمة: «... لیتصافحوا كإخوة، ولیحفظوا حدودهم وثغورهم، لكن لیوحدوا كلمتهم فی المجتمع الإسلامی المشترک بین الجمیع، وفی كلمة التوحید المشتركة بین الجمیع، وفی المصالح الإسلامیة المشتركة بین الجمیع. فلو وحّد هؤلاء كلمتهم، لما طمع الیهود فی فلسطین، ولما طمع الهندوس فی كشمیر... فإذا تحققت وحدة الكلمة، فكیف یمكن لهؤلاء، لهذه الشرذمة من لصوص الیهود، أن یسلبوا منكم فلسطینكم؟» (صحیفة الإمام، ج ٣، ص ۴۴). وقال فی موضع آخر: «لتحتفظ كل دولة بحدودها وثغورها، ولكن قفوا موقفاً موحداً فی وجه ذلک العدو الخارجی الذی یلحق بكم كل هذا الضرر» (المصدر نفسه).

٣- تأسیس الحكومة الإسلامیة

یعد تأسیس الحكومة الإسلامیة من الخطوات العملیة لإیجاد الوحدة والتلاحم. وفی هذا السیاق، یبیّن الإمام (قده): «إننا لكی نحقق وحدة الأمة الإسلامیة، ولكی نحرر وطن الإسلام ونخلصه من هیمنة المستعمرین ونفوذ حكوماتهم العمیلة، لا مناص لنا من تأسیس حكومة. ذلک أننا لتحقیق وحدة الشعوب المسلمة وحریتها ملزمون بإسقاط الحكومات الظالمة والعمیلة، ثم إقامة الحكومة الإسلامیة العادلة التی تكون فی خدمة الشعب. إن تشكیل الحكومة إنما هو لحفظ النظام ووحدة المسلمین، كما تقول السیدة الزهراء (ع) فی خطبتها إن الإمامة لحفظ النظام وتحویل فرقة المسلمین إلی اتحاد» (الإمام الخمینی، ولایة الفقیه: ٢٧؛ سعادت، ١٣٨٧: ١٧١).

٤- الاهتمام بدور الشعوب فی تحقیق الوحدة

بعد الیأس من الحكومات، ارتكز المنهج الثانی فی كفاح الإمام الخمینی (قده) علی مبدأ محوریة الجماهیر، حیث انصب تأكیده فی هذه المرحلة علی القوة الشعبیة الفاعلة. وتكمن المیزة الأبرز لهذا التوجه فی التحول من الاستراتیجیة «الإصلاحیة» إلی الاستراتیجیة «الثوریة»؛ إذ خلص الإمام إلی ضرورة تحول النضال الإصلاحی إلی نضال ثوری تضطلع فیه الجماهیر بالدور الأساس: «یجب علی الشعوب نفسها أن تحمل همّ الإسلام؛ فقد یئسنا من قادة الغالبیة العظمی من المسلمین، لكن الشعوب ینبغی أن تعتمد علی نفسها، ونحن لم نیأس منها» (فی البحث عن الطریق من كلام الإمام، دفتر ١٥، ١٣۶٢: ١٧٩). «أوصی الشعوب الإسلامیة بأن تتخذ من حكومة الجمهوریة الإسلامیة ومن الشعب الإیرانی المجاهد قدوة لها، وأن تلزم حكوماتها الجائرة حدودها بكل قوة إن لم تخضع لإرادة الشعوب... فإن مبعث شقاء المسلمین هو الحكومات المرتهنة للشرق والغرب» (الإمام الخمینی (قده)، الوصیة: ١٣).

٥- الاهتمام بقضیة القدس وفلسطین

أظهر الإمام الخمینی (قده) اهتماماً بالغاً بقضایا المسلمین عبر إعلان الجمعة الأخیرة من شهر رمضان المبارک «یوماً عالمیاً للقدس» و«یوماً للإسلام»، واضعاً بذلک منعطفاً تاریخیاً فی اتحاد مسلمی العالم، یتنامی مجده وهیبته عاماً بعد عام.

وفی هذا الشأن یقول (قده): «یوم القدس هو یوم الإسلام؛ یوم القدس هو الیوم الذی یجب أن یُحیی فیه الإسلام ونعمل علی إحیائه، وأن تُطبّق فیه قوانین الإسلام فی البلدان الإسلامیة. یوم القدس هو الیوم الذی ینبغی فیه أن نحذر القوی العظمی كلها من أن الإسلام لن یعود بعد الیوم خاضعاً لهیمنتكم بوساطة عملائكم الخبثاء» (صحیفة الإمام، ج ٩، ص ٢٧٧).

وقد صرح فتحی الشقاقی، أحد القادة الفلسطینیین، بأن الثورة الإیرانیة هی التی فتحت عهداً جدیداً أمام الحركة الفلسطینیة وجعلت النظر إلی القضیة الفلسطینیة ینطلق من زاویة إسلامیة حصراً (إبراهیم الشقاقی، ١٣٧١: ١٢٣). لقد أفرزت الثورة الإسلامیة فهماً جدیداً للإسلام والقرآن فی العالم والمجتمعات الإسلامیة والوسط الفلسطینی السنی؛ إذ صعدت من وتیرة

مناهضة الحكومات الفاسدة والقمعية، وأذكت جذوة الكفاح الصريح ضد المفاهيم المفروضة المعادية للدين، وعززت السعى نحو تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية، ووسعت نطاق ردود أفعال المسلمين حيال الغرب والتبعية له، كما محت مشاعر الإحباط التى سادت ساحة المواجهة فى أواخر سبعينيات القرن العشرين. وفى الواقع، نقلت الثورة الإيرانية إلى الشعوب المناضلة ضد الاستكبار، ولا سيما الدول المسلمة، حقيقة أن الإسلام هو الحل وأن الجهاد هو الوسيلة الأساسية (كديور، ١٣٧٤: ٩٧).

الخاتمة

يتسم العالم الإسلامى فى الوقت الراهن بمجموعة من الخصائص الجيوسياسية غير المتجانسة. وإذا ما تمت إدارة التحديات الماثلة أمام وحدة العالم الإسلامى وضبطها والحد منها على نحو سليم، فإن ذلك من شأنه أن يفضى إلى استعادة عظمة الحضارة الإسلامية ومجدها التليد فى هندسة القوى العالمية. ومع أن ارتهان هذه الحكومات للغرب يمثل فى الوقت الحاضر العقبة الكبرى أمام وحدة العالم الإسلامى، إلا أنه لا ينبغى إغفال الدور البارز والمحورى لبعض القوى الإقليمية، كالجمهورية الإسلامية الإيرانية، فى تعزيز الوحدة الإسلامية.

أما المملكة العربية السعودية، ومع أنها اتخذت نهجاً يتجاوز التنافس ويصل إلى حد الصراع مع الثورة الإسلامية للحيلولة دون تحول الجمهورية الإسلامية الإيرانية إلى قوة إقليمية مهيمنة (وهو ما نشهده عياناً فى الدعم المالى والعسكرى الكامل للتيارات السلفية والتكفيرية فى سوريا والعراق ولبنان وغيرها)، فيبدو أنها ستعدل بعض سياساتها على المدى البعيد بسبب إخفاقها فى بلوغ هذا الهدف. وتحظى السعودية باهتمام خاص فى العالم الإسلامى لمكانتها وثقلها الإقليمى ولوجود الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة؛ واستمرار سياساتها العدائية تجاه إيران سيعزز مسار الفرقة فى العالم الإسلامى ويقود إلى استقطاب ثنائى أو تشظٍ فيه. ولا يمكن إنكار دور النخب الفكرية والسياسية والحكومية فى العالم الإسلامى فى تغيير هذا المسار المأساوى الذى لا يخدم سوى المخططات الصهيونية. كما ينبغى للسعوديين أن يدركوا أن تغذية التيارات التكفيرية المتطرفة لن يقتصر أثرها على زعزعة أمن البلدان المسلمة الأخرى وقتل الشيعة، بل إن ارتدادات انعدام الأمن ستطال فى القريب العاجل الدول الحليفة بل والمملكة العربية السعودية نفسها. وثمة تحدٍ آخر يواجه العالم الإسلامى فى تحقيق الوحدة يتمثل فى غياب القيادة الموحدة، وتعد المواقف المتباينة والمتناقضة لقادة الدول الإسلامية إزاء التطورات الإقليمية والدولية دليلاً جلياً على ذلك.

ويبدو أن الأوان قد حان لإنشاء مركز للتنظير الإسلامى، بمحورية الجمهورية الإسلامية الإيرانية وبالتعاون مع الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى، بهدف صياغة نماذج إسلامية وأصيلة تلبى احتياجات البلدان المسلمة وتعزز التقارب والوحدة الإسلامية، بالاستفادة من الطاقات الجامعية والدينية والحوزوية. فالنماذج وأسس التنمية الغربية لا تزال مهيمنة اليوم على الدول الإسلامية. وقد أوجدت الثورة الإسلامية الإيرانية -التى وضعت أسس التنمية الغربية موضع تساؤل- قيمة جديدة فى مسار التنمية، مفادها أن التنمية الاجتماعية لا تتطلب بالضرورة الارتهان للنماذج الغربية. وبتعبير جيدنز، فإن المسار العالمى العام الذى كان يتجه نحو العلمنة وتهميش الدين قد شهد تحولاً معاكساً بفضل الثورة الإسلامية فى إيران؛ أى إن الحركة العامة للعالم بدأت مساراً عكسياً نحو التدين (جيدنز، ١٣٧٤: ٧٥). لذا، باتت منطقة الشرق الأوسط تُعرف اليوم بمصطلح «العالم الإسلامى» أكثر من تسميات مثل العالم الشرقى أو العالم النامى.

لقد أدخلت الثورة الإسلامية مفهوم «العالم الإسلامى» إلى هندسة القوة العالمية، لدرجة أنه غدا مصطلحاً شائعاً حتى فى الأدبيات السياسية الغربية، فى حين كان مصطلحاً طواه النسيان فى الأدبيات السياسية العلمانية حتى عقود قليلة خلت (مهدوى زادكان، ١٣٨٤: ٢٠٨). ولا مناص للعالم الإسلامى، حفاظاً على هويته، من الاتحاد والرجوع إلى «مبادئ الإسلام وقيمه العالمية» التى تعلو على النزعات القومية. فالأساس الذى تقوم عليه وحدة الأمة الإسلامية ليس العدو المشترك أو الغرب، بل هو «الإسلام» ذاته (خان محمدى، ١٣٨٥: ١٦).

الميرزا خليل الكمرەای ونموذج التقريب الإسلامی

لا ريب فی أن الإسلام من جهة لم يجعل الروابط العرقية والقومية معياراً لوحدة المجتمعات الإنسانية، بل أرسى أساس الوحدة على أصل التوحيد؛ ومن جهة أخرى، فإن الفرقة والشتات الناجمين عن الاتساع الجغرافی وتنوع الأقاليم، والتعصب المذهبی، وتباين رؤى أصحاب النظر فی المباحث العقلية والكلامية والفقهية والعرفانية، فضلاً عن الثقافات والتقاليد المحلية والتحديات غير المسبوقة مع العلمانية وثقافات الاستهلاک الوافدة، قد فرضت دماراً بالغاً على جسد المجتمعات الإسلامية.

ومع ذلک، فإن غاية أمل كل مسلم أن تُخمد نيران الحرب والشقاق بين المسلمين، وأن ينعموا بالقوة والمنعة فی ظل وحدتهم الإسلامية. وانطلاقاً من هذا، يكتسب التنظير للوحدة وتقديم نماذج لتحقيقها واقعاً عملياً أهمية استراتيجية بالغة؛ فالتنظير للوحدة الإسلامية هو فی حقيقته تنظير لبلوغ التنمية وترسيخ الهوية الإسلامية واستعادة سيادة الإسلام وعزته. ومن القضايا التی استأثرت باهتمام جل هؤلاء المنظرين: أسباب الهيمنة الغربية، وطبيعة علاقات القوى الأجنبية بالدول الإسلامية ونفوذها عبر المسالک المالية والاقتصادية، وسبل التصدی لهذا الاستكبار وتلک الهيمنة.

وتتجلى أهمية التنظير فى فضاء الوحدة بصورة أوضح حين نعلم أن الدراسات الحديثة تضم أعمالاً مثل كتاب «إسلاميات وحداثات» (١٩٩٣) لعزيز العظمة، وهو عمل يُعد فى أوساط المثقفين ذا طابع تفكيكى؛ إذ تنكر هذه الأنماط من الدراسات أصلاً دور الإسلام أو حتى قدرته بوصفه شريعة جامعة ورايةَ توحيدية.

فالعظمة يأبى اعتبار الإسلام مقولة جامعة من الناحية التاريخية أو الثقافية،يم، والتعصب المذهبى، وتباين رؤى أصحاب النظر فى المباحث العقلية والكلامية والفقهية والعرفانية، فضلاً عن الثقافات والتقاليد المحلية والتحديات غير المسبوقة مع العلمانية وثقافات الاستهلاك الوافدة، قد فرضت دماراً بالغاً على جسد المجتمعات الإسلامية.

ومع ذلك، فإن غاية أمل كل مسلم أن تُخمد نيران الحرب والشقاق بين المسلمين، وأن ينعموا بالقوة والمنعة فى ظل وحدتهم الإسلامية. وانطلاقاً من هذا، يكتسب التنظير للوحدة وتقديم نماذج لتحقيقها واقعاً عملياً أهمية استراتيجية بالغة؛ فالتنظير للوحدة الإسلامية هو فى حقيقته تنظير لبلوغ التنمية وترسيخ الهوية الإسلامية واستعادة سيادة الإسلام وعزته. ومن القضايا التى استأثرت باهتمام جل هؤلاء المنظرين: أسباب الهيمنة الغربية، وطبيعة علاقات القوى الأجنبية بالدول الإسلامية ونفوذها عبر المسالك المالية والاقتصادية، وسبل التصدى لهذا الاستكبار وتلك الهيمنة.

وتتجلى أهمية التنظير فى فضاء الوحدة بصورة أوضح حين نعلم أن الدراسات الحديثة تضم أعمالاً مثل كتاب «إسلاميات وحداثات» (١٩٩٣) لعزيز العظمة، وهو عمل يُعد فى أوساط المثقفين ذا طابع تفكيكى؛ إذ تنكر هذه الأنماط من الدراسات أصلاً دور الإسلام أو حتى قدرته بوصفه شريعة جامعة ورايةَ توحيدية.

فالعظمة يأبى اعتبار الإسلام مقولة جامعة من الناحية التاريخية أو الثقافية، ويرى أن مثل هذا المفهوم يستند إلى خطاب ماهوى يغذى تصورات حول سمات شرقية ثابتة، نظراً لتسرب النزعة الماهوية -حسب رأيه- إلى صلب الدراسات الإسلامية.

وفى مقابل محاولات الأجانب أو العناصر المتعصبة التى أججت الفرقة بين المسلمين، برز مصلحون فى العالم الإسلامى أولوا اهتماماً بالغاً لتقارب المسلمين وتلاحمهم، وإن أحضان المناهج الغربية، ونافح عن القيم الدينية والأخلاقية للإسلام وضرورة نشرها. ورأى فى الخرافات، وتفرق المسلمين، والتغلغل الغربى، أدواء المجتمع الإسلامى فى عصره، داعياً إلى تسليح المجتمع بالعلوم والفنون الحديثة، والعودة إلى نبع الإسلام الأول، والتمسك بالعقيدة، وإعلاء شأن الكرامة الإنسانية، ونبذ التبعية العمياء، وترك التقليد المجرد للأسلاف والأفكار الانعزالية.

ورأى السيد جمال أن قوام وجود شعوب الشرق يكمن فى تحصيل العلم والمعرفة؛ فحث خديوى مصر على إشراك الشعب فى إدارة الحكم وإجراء انتخابات عامة، وشن فى صفحات «العروة الوثقى» حملات نقدية لاذعة ضد أنظمة الحكم فى إيران والدولة العثمانية ومصر.

وحين أسس السيد جمال الدين الأسد آبادى، بالاتفاق مع السلطان عبد الحميد العثمانى، جمعية من علماء الدين والمفكرين الشيعة الإيرانيين وغير الإيرانيين لتجسيد الاتحاد الإسلامى واقعاً ملموساً، استعان بكل من ميرزا آقا خان كرمانى، والشيخ أحمد روحى كرمانى، وميرزا حسن خبير الملك لنشر فكرة الوحدة.

فأرسل رسائل بقلم هؤلاء الثلاثة إلى علماء العالم الإسلامى فى طهران وكربلاء والنجف ومشهد وأصفهان والبصرة وغيرها من الحواضر؛ لشرح أوضاع الإسلام والدول الإسلامية ودعوتهم إلى رص الصفوف والاتحاد.

وقد بعثت هذه الجمعية بنحو أربعمائة رسالة وخطاب إلى سائر الأقطار الإسلامية التى يقطنها الشيعة، كما دعا الأسد آبادى الأمير أبا الحسن ميرزا المعروف بـ«شيخ الرئيس»، وهو حفيد فتح على شاه القاجارى، للانضمام إلى هذا المسعى. وتعد رسالة «اتحاد الإسلام» لشيخ الرئيس القاجارى من بين تلك الآثار التى دُوّنت فى أعقاب هذا الحراك إبان إقامته فى بومباى.

وإلى جانب هذا التحرك البارز، عقد السيد جمال الدين لقاءات مع أحرار مصر وسوريا والهند وإيران والعراق وألبانيا وتتار روسيا، داعياً إياهم إلى مؤازرته فى هذا المشروع الكبير؛ إذ كان يرى أن بلوغ أهدافه يمر عبر توحيد كلمة علماء المسلمين.

كان مشروع «اتحاد الإسلام» يرمى إلى تشكيل لجنة لمساندة العثمانيين، غير أن السيد جمال الدين لم يجنِ ثمار هذا الجهد الواسع؛ إذ اصطدم بريبة العثمانيين وسياساتهم الملتوية فى توظيف مشروع الاتحاد الإسلامى والجامعة الإسلامية، فضلاً عن دسائس السلطان عبد الحميد، حتى قضى شهيداً فى الغربة عام ١٣١٤ هجرية، لتخرج تركيا تدريجياً من موقع الصدارة ومركز الثقل فى العالم الإسلامى.

- نموذج إحياء الفكر الدينى:

قدم المفكرون المسلمون نماذج متباينة لإحياء الفكر الدينى، يبرز من بينها نموذج محمد إقبال، وبديع الزمان النورسى، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء. ويظل صوت إقبال فى هذا المضمار صرخة مدوية حاضرة فى الذاكرة.

ففى رؤيته، استطاع الإسلام توظيف طاقة الدين للنهوض ببنية المجتمع الكبرى؛ وقد خبر إقبال الغرب ومآزقه وفضح عثراته، واستشعر وطأة الاستعمارين الروسى والبريطانى فى ديار المسلمين، فلم يطق صبراً على سباتهم. انتقد نمط عيش المسلمين وسعى لبعث اليقظة فيهم عبر إعادة بناء أركان الفكر الإسلامى التى مزقتها الحيل السياسية والنزعات المتضاربة على امتداد التاريخ، وجسد ذلك فى مؤلفه الأبرز «تجديد التفكير الدينى فى الإسلام». وكان مبتغاه ترسيخ معرفة الذات والاعتداد بها والاهتداء إلى مخرج من واقع الانحطاط الراهن.

وفى الوقت نفسه، توجس إقبال خيفة من الانتكاس نحو الاستبداد الدينى ومحاكم التفتيش وجمود الفكر وتقييد العلم بين المسلمين، كالذى كابدوه فى الحقبة العثمانية؛ ورأى أن تقديس الماضى لا يجدى نفعاً، مؤكداً أن الأفكار البالية لا يمكن أن تسترد عافيتها بين أبناء أمة أرهقوها، ليخلص إلى:

«إن الأحياء هم القادرون على سبر أغوار الحياة، وهؤلاء تصقلهم الرؤية الكونية الإسلامية التى تجمع فى كينونتها بين الجمال والجلال والعنفوان».

كما لم يرَ إقبال جدوى فى التنظيمات القائمة على مقتضيات البنية السياسية حصراً، مؤكداً:

«إن مصير الأمة فى منتهاه منوط بالقيم السائدة بين أفرادها، لا بمجرد هياكلها التنظيمية».

ويرى أن المجتمع المفرط فى التنظيم يقمع الفرد ويسلبه فاعليته، مما يجعل الحديث عن الإسلام مهمة عسيرة.

- النموذج الفقهى:

يتمثل توجه المدرسة الفقهية لآية الله البروجردى وبعض فقهاء أهل السنة، مثل الشيخ محمود شلتوت، فى العودة إلى المصادر المشتركة بين العامة والخاصة؛ وهو مسار من شأنه أن يثمر تفاهماً وتقارباً واسع النطاق بين المسلمين.

كان آية الله البروجردى يرى أن:

«فقه الشيعة فى حاشية فقه أهل السنة»،

وكان يقول:

«كان فقه قدمائنا ناظراً إلى فقه أهل السنة والعامة».

وقد أفضى هذا المبنى لديه إلى التواصل والتفاعل مع جامعة الأزهر، وإلى تلك الفتوى التاريخية للشيخ شلتوت.

كان آية الله البروجردی یری أن الروایات ناظرة إلی المسائل والآراء المطروحة فی عصر صدورها، ولکی تُفهم فهماً صحیحاً کان یری لزاماً الإحاطة بفتاوی العامة فی ذلک العصر -ولا سیما الفتاوی التی اشتهرت وکان الناس یعملون بها-، ویعد الرجوع إلی فتاوی أهل السنة من مقدمات الفقه، ویقول:

«کان قدماؤنا یحفظون مسائل الخلاف».

ولأجل ذلک، بادر لأول مرة إلی طباعة کتاب «الخلاف» للشیخ الطوسی مع حواشٍ ومقدمة موجزة.

وقیل إن هذا النمط من التفکیر مدین فیه لحوزة أصفهان وأستاذه السید محمد باقر الدرجهای؛ إذ تعود جذور هذه الرؤیة فی أصفهان إلی العهد الصفوی.

وقد استمر فکر الوحدة والاهتمام بفقه أهل السنة فی حوزة أصفهان حتی عهد قریب، وکان الحاج آقا رحیم أرباب ممن یتبنون هذا الرأی. ویبدو أن شیخ الشریعة الأصفهانی، وهو أستاذ آخر لآیة الله البروجردی، کان یحمل الرؤیة نفسها، ویستدل بأن المجتمع فی تلک الأعصار کان مجتمعاً فی ظل حکم إسلامی تسری فیه فتاوی المفتین الرسمیین کمالک وأبی حنیفة والأوزاعی وابن أبی لیلی. وفی ذلک المجتمع نشأ أصحاب الأئمة علیهم السلام وترددوا علی حواضره العلمیة؛ فکان الرواة والأصحاب یسألون الأئمة علیهم السلام علی ضوء تلک الفتاوی، وکان الأئمة یجیبونهم ناظرین إلیها.

والمؤید الأول لهذا الأمر أن روایات الشیعة وردت فی صیغة أسئلة موجهة للأئمة؛ ومن البدیهی أن عامة الناس لا یتأتی لهم طرح هذا الکم من المسائل الدقیقة، مما یدل علی أن السائلین کانوا من أهل العلم، یسمعون المسائل من فقهاء أهل السنة ثم یعرضونها علی أئمة عصرهم.

والمؤید الآخر لهذه النظریة أن الکشی ذکر فی رجاله أن زرارة ومحمد بن مسلم وعدداً آخر من فقهاء أصحاب الصادقین علیهما السلام کانوا من أصحاب أبی حنیفة وسنیی المذهب، ثم استبصروا بتوجیه من الإمامین الهمامین.

وکان یری أنه عند استنباط أی فرع فقهی یستند إلی الروایة، ینبغی فحص عصر صدورها بدقة؛ من حیث وجود فقهاء العامة وآرائهم، ولا سیما فی المدینة المنورة، وکذلک من حیث فهم الأصحاب والسائلین أنفسهم لذلک الفرع الفقهی وهو الفهم الذی دعاهم إلی سؤال الإمام. علی أن یمتد هذا التتبع فی مصنفات الفقهاء المتقدمین حتی العصور اللاحقة. وهذا المبنی والمنهج یتطلبان استقراءً وتتبعاً واسعاً لآراء العامة ونصوصهم، مع رصد التسلسل الزمنی لتلک الآراء، خصوصاً فی عصر الصادقین علیهما السلام.

یقول أحد تلامذة آیة الله البروجردی:

«من الجلی لدیّ کالشمس فی رابعة النهار أن فقه العامة کان فی بعض الأحیان أرسخ فی أذهان أصحاب الأئمة علیهم السلام من فقه الخاصة، فکان الأئمة یتکلفون جهداً فی إدخال وجه الحق إلی أذهان أصحابهم. ومن ذلک مثلاً أن زرارة کان قد تلقی مسائل المواریث وفق فقه العامة، وکان یری نفسه عالماً بالفرائض لدرجة أنه لم یکن یری حاجة لسؤال الأئمة عنها أصلاً. فلما سمع فتوی الإمام، لم یکترث بها بادئ الأمر لمخالفتها لما عنده من معلومات؛ فغضب الإمام فی وجهه قائلاً: إنما عرضتُ علیک مسائل المواریث من کتاب أمیر المؤمنین علیه السلام، فانتبه زرارة من غفلته وأدرک أن معلوماته فی الفرائض لم تکن قائمة علی أساس، وأن علیه إعادة تعلم مسائل الإرث من جدید. وهذه الروایة مرویة فی الکافی والظاهر أنها فی التهذیب أیضاً».

وفی روایة أخری سأل محمد بن مسلم الإمام الصادق علیه السلام عن المسافة الموجبة للتقصیر: «قال: سألته عن التقصیر، قال: فی برید. قلت: فی برید؟».

وقد فصّل السيد البروجردى الحديث حول سبب تعجب محمد بن مسلم واستفهامه من الإمام إن كان البريد الواحد هو حد التقصير؛ مبيناً أن علة ذلک إقامته فى الكوفة حيث كان فقه العامة هو السائد هناک، وكان حدهم للتقصير «مرحلتين» أى ستة عشر فرسخاً. فلما قال الإمام أربعة فراسخ كان ذلک موضع تعجب وسؤال منه،

فأجابه الإمام عليه السلام: إنما أردتُ بريداً ذهاباً وبريداً إياباً، ومجموعهما ثمانية فراسخ.

أما الجهة الثانية، فهى تمييز الروليات الصادرة تقية؛ إذ لم تكن التقية دائماً فى مواجهة فقه العامة وفقهائهم، بل كلنت تقع أحياناً فى مواجهة الحكام وقضاة الجور. فالأغلب من فقهاء العامة مثلاً يحرمون النبيذ، لكن لما كان الحكام يشربون المسكر، فإن أى رواية تفيد حلية النبيذ تكون ناظرة إلى التقية من الحكام الجائرين.

ولم يكن آية الله البروجردى محيطاً بفتاوى أئمة المذاهب الأربعة وأقوالهم فحسب، بل كان مستوعباً لآراء الصحابة وسائر الفقهاء كالأوزاعى والثورى والليث، وعالماً بمواضع خلافهم فى المسألة الواحدة؛ حتى إن عدداً من فقهاء أهل السنة كانوا يرونه عند لقائه أعلم منهم بأقوال علماء العامة ومذاهبهم.

وكان عند طرح المسألة منث، وعالماً بمواضع خلافهم فى المسألة الواحدة؛ حتى إن عدداً من فقهاء أهل السنة كانوا يرونه عند لقائه أعلم منهم بأقوال علماء العامة ومذاهبهم.

وكان عند طرح المسألة من وجهتها التاريخية يبسط آراء الصحابة والتابعين والفقهاء الذين عاصروهم أو تلَوهم، ثم ينعطف إلى آراء علماء الشيعة، كأنما الفقه وتاريخه وأدلته طوع بنانه كالصلصال اللين. وحين كان يتناول الصلاة فى الأماكن الأربعة، كان يفصل القول فى حدود الحائر الحسينى وتاريخ هذا المرقد الشريف وأحداثه المؤلمة فى عهد الخلفاء العباسيين. فلم تكن معرفته مقتصرة على التاريخ الإسلامى العام، بل كان ضليعاً فى تاريخ علم الكلام، وتاريخ الحديث، وتاريخ الفقه.

- النموذج التاريخى:

يمكن عدّ الميرزا خليل الكمرەاى فى طليعة واضعى معالم هذا النموذج؛ فقد كان يؤمن بضرورة تجديد المكتسبات التاريخية والسنن الإسلامية، راغباً فى أن يبعث من جديد تلک الروح التى سرت قبل أربعة عشر قرناً فى بطحاء الحجاز فحركت تلک الصحراء الساكنة، ليعيدها إلى جسد مجتمعه الغافل فى ذلک العصر، ويبرهن على أن الإسلام، رغم كل صنوف الغفلة والانحراف، لا يزال قادراً على تفجير النهضة فى المجتمع. ويمكن أن نطلق على النموذج الذى اقترحه الميرزا خليل الكمرەاى اسم «البنيوية التاريخية»؛ إذ يستند نموذجه إلى البنى التاريخية للنظام الإسلامى، وينهل من دراساته المعمقة فى التاريخ الإسلامى.

على أن عصره لم تكن قد بدت فيه كثير من الكوابح والعوائق، ولم تكن جل التساؤلات المعاصرة قد تبلورت بعد؛ ولذا لا يبدو واضحاً لدينا ما التصور الذى كان يمكن للشيخ الكمرەاى تقديمه لمعالجة الواقع المضطرب للتنوع الثقافى فى العالم الإسلامى فى ضوء نموذجه، أو ما المقترحات التى كان سيطرحها لفک هذه المعضلة، أو كيف ستكون مسارات العلاقات العابرة للأ متعدد الثقافات فى المجتمع الإسلامى لاستيعاب التنوع الثقافى، وسن ضوابط تحدد نمط العلاقة مع الثقافات المحلية (Folk culture) والتعددية الثقافية (Multiculturalism)؛ إذ إن ترسيم هذه الحدود ليس بالأمر الهين.

من هو الميرزا خليل الكمرەاى!

قبل الخوض فى تبيان رؤية العلامة الكمرەاى، لا بد من التعرف على شخصيته ومكانته العلمية وبيئته الثقافية التى نشأ فيها وترعرع وبلغ فيها مرحلة النضج والعطاء؛ فالعلامة الميرزا خليل (١٢٧٧ - ١٣٦٣هـ.ش):

وُلد فی قریة «فرنق» التابعة لمدینة خمین فی ناحیة کمره. وکان والده المشـــهدی أبو طالب فلاحاً، ووالدته الســـیدة بی بی خاتون جان ربة منزل. وفی نحو السادسة من عمره تعلم القراءة والکتابة لدی عمه ثم فی کتّاب القریة، وفی نحو الثانیة عشرة من عمره ارتحل لمواصـلة دراســته نحو جابلق وخمین ثم خوانســار، فتلقی علوم الأدب ومقدمات اللغة العربیة علی ید الملا محمد بیدهندی، والسید أحمد بیدهندی، وآقا السید أحمد جادهای وغیرهم من الأساتذة.

وفی حدود عام ١٢٩٦هـ‌ش، قصد المیرزا خلیل مدرسة سبهدار فی حوزة أراک العلمیة (سلطان آباد) لمتابعة دراسته، فدرس فیها الفقه والأصول والمنطق وقسطاً من الحکمة والفلسـفة، کما حضر دروس البحث الخارج فی الفقه والأصول لدی الشیخ عبد الکریم الحائری الیزدی وسائر العلماء. وفی عام ١٢٩٩هـــش انتقل إلی قم، وظل یطلب العلم ویدرّسه فی حوزتها حتی حدود عام ١٣١٤هـــش. وکان من أبرز أسـاتذته فی قم: الشـیخ عبد الکریم الحائری الیزدی (مؤسـس حوزة قم العلمیة)، والمیرزا علی أکبر المدرس الیزدی المعروف بالحکیم، ومیر السـید علی یثربی کاشـانی، والمیرزا جواد الملکی التبریزی. وبعد طی هذه المراحل ونیل العلوم الدینیة، اشـتغل المیرزا خلیل بتدریس السـطوح، والتفسـیر، والفلسـفة، إضـافة إلی علوم الهیئة القدیمة، وتشریح الأفلاک، والهندسة الإقلیدیة، وخلاصة الحساب للشیخ البهائی.

ومن الأعلام الذین حضروا دروسه فی قم: السید مرتضی العسکری، ومرتضی الحائری الیزدی، والسید مرتضی البرقعی، والشیخ علی أصغر صالحی کرمانی، والسید محمود طالقانی؛ وکان أغلب هؤلاء یُعدون من تلامذته فی العلوم العقلیة.

وکان المیرزا خلیل علی درایة دقیقة بآراء الفلاسفة المتقدمین.

ومن أشهر مؤلفاته: «أفق الوحی»، و«السماء والعالم»، و«قبلة الإسلام - الکعبة أم المسجد الحرام»، و«علی والزهراء ینبوع ماء الحیاة»، و«عنصـر الشـجاعة أو اثنان وسـبعون وواحد»، و«بیت المقدس وتحول القبلة»، و«فتاوی الصـحابی الکبیر سـلمان الفارسی».

الجهود فی سبیل التقارب الإسلامی

کان أهم أعمال الکمرهای وأبرزها حتی نهایة عمره السـعی إلی اتحاد المسـلمین فی العالم، أو بتعبیره هو: «توحید الکلمة لکلمة التوحید». وکان المیرزا خلیل یری أن المهمة الأساسیة لرجال الدین هی الانشغال بالشؤون المعنویة؛ ولذلک لا یمکن وصفه بأنه سیاسی أو ناشط سیاسی، وإن کانت بعض نشاطاته قد اتخذت طابعاً سیاسیاً واجتماعیاً.

وکان الکمرهای یغتنم کل فرصـة ومناسـبة لخدمة اتحاد المسـلمین. ویمکن ملاحظة هذه الروح فی التقریر الذی قدمه عن رحلته الأولی إلی الحج سنة ١٣٣٧هـــش؛ إذ اغتنم لقاءً عارضاً جمعه بولی عهد ملک السعودیة، فتحدث عن معاناة الإیرانیین فی الحجاز.

کما وجّه فی رسالة مؤرخة فی السادس عشر من شعبان سنة ١٣٨٤هـــق إلی الملک فیصل بن عبد العزیز آل سعود، ملک المملکة العربیة السـعودیة، مطالب مهمة، وطلب منه أن یصـدر أمراً بتدریس الفقه الجعفری فی الجامعة الإسـلامیة بالمدینة المنورة.

وقد عدّ فی هذه الرسالة ثلاثة تیارات عوامل لکارثة التفرق:

- التربیة المتعارضة للجیل الجدید.

- صرخات القومیة وصخب النزعات العرقیة لدی الحکام والسلاطین.

- الخلافات المذهبیة التی یکون الفقهاء منشأها.

وإلى جانب هذه المساعي، لم يغفل الميرزا خليل عن العمل الميداني أيضاً. ففي سنة ١٣٣١هـ.ش شارك، برفقة السادة: السيد محمود الطالقاني، والحاج آقا رضا الزنجاني، والسيد صدر الدين البلاغي، في المؤتمر الدولي لشعوب المسلمين بمدينة كراتشي. وفي أحد أيام المؤتمر اختير رئيساً له، فألقى خطاباً بشأن الاتحاد الإسلامي الدولي ووحدة البلدان الإسلامية. وفي سنة ١٣٣٨هـ.ش، وبناء على دعوة «المؤتمر الإسلامي العالمي» المنعقد في المملكة الأردنية الهاشمية، سافر إلى الأردن برفقة السيد محمود الطالقاني. وهناك شكر الشيخ محمود شلتوت، مفتي الديار المصرية ورئيس جامعة الأزهر، على فتواه التاريخية القاضية بجواز اتباع مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية. كما زار بيت المقدس خلال هذه الرحلة

وفي سنة ١٣٤٣هـ.ش بعث الميرزا خليل الكمرهاى برسالة إلى الملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية، أعرب فيها عن قلقه من النزعات القومية والعرقية المثيرة للفرقة، وطلب منه أن يهيئ أسباب التفاهم والتقريب بين فقهاء المذاهب الإسلامية.

وألف كتاباً باللغة العربية بعنوان «أرض النبوة جسر عظيم»، وقدمه إلى الملك فيصل، وسعى فيه إلى بيان مسؤوليته في توطيد أسس اتحاد المسلمين، وإقناعه بأنه لا ينبغي له، في بناء هذا الجسر العظيم، أن يغفل عن معارف الإمام علي عليه السلام.

وفي السنة نفسها، أجاب الميرزا خليل علماء كردستان إيران، فخلص، بعد دراسة مرحلة حياة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل وقيادتهم، إلى أنهم كانوا من صحابة رسول الإسلام وأصحابه، وأن النبي لم يكن ليهينهم قط. ولذلك كان لا يرى جواز الإساءة إلى الخلفاء الراشدين الثلاثة.

كما أجاب عن رسالة «ندوة العلماء» في لكنهو بالهند. وكانت هذه المدرسة قد أسسها شبلي النعماني (١٨٥٧-١٩١٤م)، المتأثر بدوره بالسيد أحمد خان (١٨١٧-١٨٩٧م)، وقد كتب الرسالة أبو الحسن علي الحسني الندوي، الأمين العام لهذه المدرسة، بمناسبة مرور خمس وثمانين سنة على تأسيسها، في شوال سنة ١٣٩٥هـ.ق / ١٣٤٥هـ.ش. وفي رجب سنة ١٣٩٥هـ.ق / ١٣٤٥هـ.ش، وجّه كلامه إلى الأمين العام للمؤتمر الإسلامي في الهند - لكنهو، الذي عقد لتكريم العلامة السيد عباس الرضوي، فقال:

«ينبغي أن تحظى وحدة الكلمة بعناية بالغة، وألا يتهيأ صدع في قشرة المجتمع الإسلامي فتتسلل إليه الجراثيم. فإن التفرقات تؤدي إلى تدخل الأجانب واستغلالهم للأوضاع».

في صيف سنة ١٣٤٨هـ.ش، كتب الميرزا خليل رسالة مفتوحة إلى ريتشارد نيكسون، رئيس الولايات المتحدة آنذاك، بعنوان «فتح بلا غرور». فهنأه فيها بفتح القمر وتحقق وعد القرآن، وطلب منه أن يسمح، شكراً لله على أن هذا الفتح السماوي قد تحقق في زمن خدمته، للجياع والمشردين في العالم عموماً، ولا سيما لمليوني مسلم عربي مشرّد في الشرق الأوسط، الذين مضى عليهم عشرون عاماً وهم هائمون على وجوههم، بالعودة إلى بيوتهم ومواطنهم ومأواهم، لكي يكون فتح القلعة السماوية فتحاً شاملاً من جميع الوجوه.

وفي أواخر تلك السنة وبداية شهر فروردين من سنة ١٣٤٩هـ.ش، شارك الميرزا خليل في المؤتمر العالمي للألفية الشيخ الطوسي في مشهد، ولخص اهتمامه وإصراره على وحدة المذاهب الإسلامية في هذه العبارة: «في يومنا هذا، كل شيعي سني، وكل سني شيعي».

وعقد الكمرهاى لقاءات مختلفة مع السيد جعفر رائد، والسيد حمزة غوث من الشخصيات السياسية المرتبطة بالمملكة العربية السعودية، والشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، الوزير السعودي. كما التقى الشيخ محمد بن ناصر العبودي، الأمين العام

للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فى طهران بتاريخ ١٣٥١/١/١٥هـــش. وأعلن فى «رسالة الرابطة الإسلامية فى مكة»، وفى المؤتمر والندوة المنعقدة فى القاهرة والإسكندرية، قائلاً:

«إن هذا الوضع الشاذ القائم بين الدول الإسلامية قد بلغ حداً تتخذ معه سياسات انتقامية بعضها تجاه بعض، وهذا الأمر يخلق جواً يستغله الأجانب، وهدفه تفكيك العالم الإسلامى».

وكانت أهمية الحفاظ على الوحدة عنده بالغة إلى الحد الذى جعله يتناول ضـــرورة تقديم مقترح فى هذا الشـــأن فى كتابه: «رسالتى إلى الشيخ الأكبر محمد بن إبراهيم المفتى الأعظم الأكبر»، الذى طبعته دار رابطة العالم الإسلامى، ونشرت ترجمته فى إيران ضـمن كتاب «خمس رسـائل فى الحج والقبلة». وقد عرض هذا المقترح مرة على المولوى عبد المجيد، مدير مجلة «إسلاميک ريفيو»، فى مسجد بولينغ بلندن، لكى ينشره فى مجلته.

وكان الميرزا خليل يهتم بالبحث فى الجذور التاريخية للانقسامات وحالات التنافر، ولا سيما المواجهات التى وقعت بين إيران والدولة العثمانية منذ العهد الصـــفوى حتى عصـــر نادر شـــاه، ولم يكن غافلاً عن أثر تلك الصـــدامات التاريخية فى الأحكام والتقييمات المعاصـــرة. وكان يتحدث عن أعداء المســـلمين الذين لا حد لعداوتهم فى كل مكان، وعن حاجة المســـلمين إلى الوحدة فى ضوء دروس التاريخ.

ومن وجهة نظره، تنشأ التعددية فى العالم الإسلامى من عدة أمور:

- التمييز بين الشريعة والطريقة والحقيقة.

- التسنن والتشيع.

- المنازعات العقلية والكلامية؛ فقد أوجد الإسلام، منذ قرون طويلة، واحدة من أغنى اللغات العقلية فى العالم.

- الاستقامة العقدية والانحراف العقدى.

- اختلاف المناطق الثقافية العربية والفارسية والإفريقية والتركية وشبه القارة الهندية والملايوية، ومناطق مثل الصين وأوروبا وأمريكا.

وفى نوروز سنة ١٣٥٦هـش، سافر إلى دمشق بدعوة من الشيخ أحمد كفتارو، مفتى الديار السورية، وألقى فى جامع أبى النور كلمة حول اتحاد المسلمين فى العالم.

وفى بداية الثورة الإسـلامية، شـارک مع السـيد محمود الطالقانى فى المسـيرة الحاشـدة ليوم تاسـوعاء، دعماً لتحقيق أهداف الثورة وشعارات الشعب، وهى: «الاستقلال، الحرية، الجمهورية الإسلامية».

وفى شـهر شـهريور سـنة ١٣٥٩هـــش، وبعد اندلاع الحرب على يد صـدام حسـين وشـنه هجوماً عسـكرياً على «تراب الوطن المقدس»، دافع الميرزا خليل عن الموقف الحق لإيران بكتابة مقال مطول فى صـــحيفة «اطلاعات» بعنوان: «إلى أين يحمل العربى هذا العار؟».

وكان الميرزا خليل لا يكف عن التحذير وبيان مشكلات العالم الإسلامي، وكان يشتد غضبه من أن بعض الناس، في هذه الظروف العصيبة والدوامة الكبرى التي وقع فيها المسلمون، لا يرون العدو الرئيسي وأسباب الخراب، ويؤججون الخلافات الجزئية، ويمهدون الطريق للمستعمرين.

برای حفظ پیوستگی متن و ترجمه با همان سبک بخش های پیشین، ابتدا زمینه گفتگوی قبلی را بررسی می کنم.

الکمره‌ای ونموذج التقارب الإسلامی

مع تأكيد الكمره‌ای وجود وحدة ظاهرة في الحضارة الإسلامية، فإنه، من خلال تشريحه للأوضاع السياسية في البلدان الإسلامية في عصره، يقترح أنه في مثل هذه الظروف المثيرة للقلق، لا يوجد محور يمكنه أن يتيح الوحدة للمسلمين إلا التمسك بالعاملين الأساسيين للوحدة بينهم، وهما القرآن والسنة. فهذان المصدران يؤكدان التعاليم والعناصر الأساسية للدين، وهي التوحيد والنبوة والمعاد.

وإلى جانب هذين العاملين، كان يركز كثيراً على الشريعة والشعائر الدينية في العالم الإسلامي، ويرى أن لهذه الشعائر أهمية بالغة في تحقيق وحدة المجتمع. كما كان يعد عنصر «القبلة» مهماً جداً في تأمين الوحدة، ويذكّر بأن هذا الأمر يحتاج إلى دعم الحكام المسلمين؛ إذ ينبغي لهم أن ينظروا إلى حياتهم بوصفها حياة أمة واحدة.

ومن وجهة نظر آقا ميرزا خليل الكمره‌ای، فإن تعدد أعلام الشعوب الإسلامية لا يضر بأمر الوحدة فحسب، بل يكون أنفع، شريطة أن يؤيد بعضها بعضاً ويتعاون بعضها مع بعض.

«لأن العلم الواحد يدل على رأي واحد، ويعد صوتاً واحداً، ولا نفع له في مجتمع الأمم، وإن كثر عدد المجتمعين تحته».

ويستند في ذلك إلى قول النبي صلى الله عليه وآله:

«إني أباهي بكم الأمم بكثرتكم».

فالأعلام الكثيرة تدل على تعدد الآراء. والمقصود أن المبادئ يجب أن تكون موحدة، وأن تكون الأصول الحاكمة واحدة؛ أما تعدد العناصر والألوان واللغات والأعراق والقوميات، فهو منسجم مع الوحدة الإسلامية.

ويدعو الأمة الإسلامية إلى أن تنظر في مكانة الشعوب الإسلامية في العصر الأول، وكيف أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أرسى الوحدة بينها بدعوتها إلى الطاعة والألفة، وأكثر النعمة في ما بينها؛ لكي تعرف، من هذا الطريق، أسباب عزتها وعافيتها، وأسباب تفرقها وانحطاطها.

وكان حله العاجل للوصول إلى الوحدة يتمثل في الاستفادة من القوة السياسية، أي الحكام المسلمين، والقوة المعنوية، أي العلماء والفقهاء، من أجل إزالة الخلافات والأوهام.

ويرى أن طريق التفاهم بين الفقهاء هو التجوال في البلدان الإسلامية واللقاء بعضهم ببعض. كما يقترح تبادل الطلاب وطلبة العلوم الدينية في دروس الفقه لحل الخلافات المذهبية. ويرى أن ذلك يؤدي إلى تقليل مشاعر النفور والخوف المتبادل، وإلى إدراك أن الفقه الإسلامي في جميع المذاهب مقتبس من الكتاب والسنة.

ويستمد نموذج الكمره‌ای في الوحدة الإسلامية عناصره من مقومات الوحدة في الفكر الإسلامي؛ سواء في مباحث التوحيد والنبوة والمعاد، أم في المناسك والشعائر، كالحج والقبلة والأذان، وفي الرجوع إلى تاريخ الإسلام وإحياء معالم الوحدة في صدر الإسلام والعصر النبوي.

وكان يعتقد أن الرجوع إلى التاريخ يحول دون إفراط المسلمين وتفريطهم، وأن الوحدة تتشكل فى مثل هذه الظروف.

فى نموذجه، ينظر إلى العالم الإسلامى بوصفه حقيقة واحدة متكاملة. ومع ذلك، يعد الاختلافات أمراً طبيعياً، ويرى أن عوامل التفرقة تتمثل فى هجوم القوى السياسية الأجنبية، وسوء إدارة الأنظمة السياسية والثقافية الداخلية.

ومن وجهة نظره، ينبغى البحث عن جذور العزة الإسلامية فى الحج والقبلة. فهما من أعظم نعم الله فى التجمع الكبير للأمة الإسلامية. ويتهيأ المسلمون كل يوم للانضمام إلى جيش الحج والقبلة، ويدخلون فى جيش محمد صلى الله عليه وآله، ويظهرون كل يوم، تحت أمره وتعاليمه، اصطفافهم فى سبيل أمن العالم. ولهذا السبب، لا تقبل النيابة فى التوجه إلى القبلة ما دام الإنسان المكلف حياً، بل يجب على الشخص نفسه أن يضطلع بهذا الواجب.

ومكة والمدينة قلب الحياة الإسلامية ووحدة المسلمين؛ ولذلك يقترح أن تنصب فى جميع المواقع التاريخية فى هاتين المدينتين علامات ولوحات تذكر المسلمين بماضيهم. فإذا لم تنصب هذه العلامات، وجد الزائرون القادمون من مختلف البلدان صحارى هاتين المدينتين وجبالهما كصحارى مدنهم وجبالها، ولن يروا لها خصوصية أو تميزاً.

ويقترح أن تنصب فى نواحى البقيع ألواح تذكّر بمجد وعظمة المدفونين فيه. وبفضل هذه الألواح، يجتنب المسلمون الإفراط والتفريط

ويكون دور هذه الألواح أن تضطلع هذه البقعة المقدسة بدورها الوحيانى فى جميع أنحاء الكرة الأرضية، لأن الله جعل البيت مثابة لقيام الناس.

وقد اهتدى إلى هذه الفكرة فى حج سنة ١٣٨٢هـ‍ـق. واستخلص من تأمله فى هاتين المدينتين أن هذا العمل ينطوى على مفتاح أمن العالم والمجتمع، ويؤدى إلى تآلف القوى الإسلامية كى يعين بعضها بعضاً. أما الغفلة عن هذا الأمر فتفضى إلى الفساد فى شؤون المسلمين. وتكمن أهمية هاتين المدينتين فى كونهما حافلتين بالذكريات.

ينبغى أن تصل أشعة الوحى من بيت الله الحرام إلى جميع أنحاء العالم، وأن يكسى بيت الله حلة سماوية، وأن تكون أرض الوحى، كما سماؤها، مصدراً للإلهام والوحدة. فإذا لم تعكس القبلة ومكة الأشعة الكامنة فيهما، فلن ينعم العالم بالأمن. ولهذا ينبغى لمنطقة الوحى، حتى جبالها ورمالها، وأمواتها وأحيائها، وأرضها وسمائها، أن تنطق، وأن يحمل الناس هذه الصلة إلى أبعد البلدان.

وقد أدت أهمية النموذج الذى قدمه إلى ارتباط عدد من آثاره العلمية، بنحو أو بآخر، بمكة والمدينة والقبلة ومسائل الحج، ومن تلك الآثار:

- «قبلة الإسلام».
- «الكعبة أم المسجد الحرام».
- «بيت المقدس وتحول القبلة».
- «آفاق الكعبة».
- «نهيب النبى صلى الله عليه وآله إلى الملوك والأمراء والفقهاء والعلماء من خيف منى».
- «مفتاح أمن العالم»؛ شرح خطبة حجة الوداع، وتكملته: «مفتاح أمن الدنيا».

- «رسالة مناسک ومسائل الحج والعمرة».

- «نداء من أرض بيت المقدس»؛ رحلة المؤلف إلى المؤتمر الإسلامی فی الأردن.

- «الاجتماع حول بيت القداسة»؛ مقال فی مجلة «دين در عرصه دانش».

أسرار الحج

يذكّر العلامة الكمرهای الحكام المسلمين بهذه الحقيقة البديهية، وإن كانت منسية، وهی أن بيت الله أولى من منظمة الأمم المتحدة بإيجاد الوحدة. فالقبلة التی يتوجه إليها المسلمون يمكن أن تتحول إلى بيت أمن للأمم وللدول، ويتمتع جميع الناس، بالتمسک بهذه القبلة، بحقوق متساوية، فلا يبقى معنى لأی تمييز عرقی أو جنسی أو مذهبی. وقد أراد الله أن تنتشر هذه الفكرة انطلاقاً من هذا البيت.

ويذكّر بأن النبی صلى الله عليه وآله خاطب الأنصار من على جبل الصفا قائلاً: «المحيا محياكم والممات مماتكم»؛ أی: إنی أتمنى أن تكون حياتی كحياتكم ومماتی كمماتكم. وقد رأى الناس أهلاً لهذه المنزلة من اللطف. وكان لهذه العبارة من الأثر فی نفوسهم ما أثار عاصفة من المشاعر بينهم؛ ففتح النبی ذراعيه واحتضنهم، وانهمر الجميع بالبكاء.

فالنبی، وهو يتطلع إلى لقاء الجنة، كان يبدی هذا القدر من المحبة لأهل المدينة، ويتمنى أن يحيا ويموت بينهم.

ويرى الكمرهای أن ذلک هو أليق الحالات، ويوصی بأن تُستحضر هذه المشاعر العارمة عند زيارة المدينة؛ وإلا فإن حكومة الحجاز تكون قد ظلمت مستقبل المسلمين، وسعت إلى إبقاء هذه البروق المتألقة مطفأة.

ويذكّر كذلک بكيفية طلب النبی صلى الله عليه وآله من قريش، يوم فتح مكة، أن يبدوا له ما فی نفوسهم، ثم عفا عنهم رغم ما اقترفوه من جفاء بحقه، وحوّل ساحة القتال والالتقاء إلى ساحة لقاء ووصال، فأظلت المحبة والصفاء المسجد الحرام ومكة. وهناک اجتمع سلمان الفارسی، القادم من رامهرمز أو جی، إلى جانب بلال الحبشی وصهيب الرومی.

ويخلص إلى أن للقبلة سراً عظيماً؛ فهی تدل على أن على الناس فی هذا الموضع أن يتلقوا أمراً وأن يعلنوا ما لديهم من أقوال. فالمحبوب هناک، واتجاه القبلة قطب عالمی من البداية إلى النهاية؛ إذ يوجّه الإنسان إليه عند تغسيله بعد الموت، ويدفن مستقبل القبلة.

«وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِی كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ».

وفی رؤية الميرزا خليل للقبلة، ليس البيت هو محل العناية، بل الحرم والبلد الأمين للذی تكون الكعبة جهته. فالمقصد النهائی ليس الحجر والطين، بل السر الغامض الكامن فيهما. والمقصود هو النظام الإلهی الذی شُرّع، وقوانين الأمن والأمان التی وضعها المعلم الإلهی للبشر.

فالقبلة هی فعلنا، لا اسم البيت؛ ولكن لما كان الفعل يجب أن يكون باتجاه بيت الله الحرام، أطلق اسم الفعل على البيت شيئاً فشيئاً.

إذن فالقبلة هی هيئة الوقوف والتوجه إلى شیء، تؤدی مع حضور القلب والذهن.

فالقبلة سلوک واع ومدرک تشترک فيه جميع الأعضاء والجوارح.

وعليه، فالقبلة هى الإقبال على شىء، وحضور الذهن فيها شرط لازم. وهى ملهمة، ومصدر للإلهام، ومنبع للنداء الروحى. فهى تستحضر جمهور أنصارها وتغيبهم خمس مرات كل يوم، وتصطف بهم فى موكب دينى فى صفوف يملؤها الإخلاص التام، وتوحى إليهم بكل ما تختزنه فى ذاتها. ويواصل أتباع مدرسة القبلة هذا العمل، وهذا الامتداد المتزايد يفضى فى النهاية إلى خضوع العالم لسلطانها، فيصبح الجميع من حزب القبلة. فسر القبلة عظيم.

وتدور حرب صامتة بين الكعبة والقصور الحاكمة؛ فكل منهما ينتقص من الآخر ويضيف إلى نفسه، وجموع البشر واقعة فى حلقة تجاذب بين هاتين القوتين. وإن القيود الاجتماعية تجر الإنسان إلى الجحيم، فيما تحرره جاذبية بيت الله. وكل الأمم التى لم تكن لها قبلة مضت إلى الحرب مع الإسلام، لكن الإسلام بقى لأنه يملك القبلة:

«وَجَعَلْنَا الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ».

فالقيام ينبغى أن يؤخذ من الكعبة؛ إذ إن القيام الصحيح هنا.

ومن المسائل الجديرة بالتأمل: إشراف القبلة على الأشجار والحيوانات، والإشراف على الذبيحة، وعلى مال الإنسان الذى لا كفيل له، وكذلك إشرافها على قيام الناس، ومنطق البلد الأمين فى مواجهة البلدان غير الآمنة.

وفى عرض إجمالى للبحث، يمكن القول: إن نماذج متعددة للوحدة الإسلامية قد طرحت حتى الآن. ومن بينها النموذج التاريخى الذى قدمه الميرزا خليل الكمره‌اى. فهو يرى أن الوحدة يمكن تحقيقها بالاقتداء بالتقارير والروايات التاريخية للإسلام. ومن المتوقع أن يحظى هذا النموذج، لما يتسم به من متانة فى الوثائق والاستناد، بإقبال عام؛ لأنه ليس نموذجاً خيالياً، بل هو محسوس وواقعى.

ومع أن الكمره‌اى، فى سبيل تقديم نموذجه المنشود، تجاوز نقد المحافظات التاريخية، وأحسن الاستفادة من ملكته الاجتهادية، فإنه لم يطرح النظريات الأخرى ولم يناقشها بالنقد. وكان من المناسب، مثلاً، أن يشير إلى أفكار معاصره العلامة إقبال فى مجال الوحدة؛ ولا سيما أن العلامة إقبال اللاهورى لا يوافق على الإفراط فى تقديس التاريخ، ويرى أن التنظيمات المفرطة ثمرة للنزعة إلى الماضى، ويعتقد أن ذلك يتعارض مع الدوافع الداخلية للإسلام.

ومن وجهة نظره، فإن الاعتصام بحبل الله يترتب عليه أثران: حصانة جماعة المسلمين ومنعتها من الضرر، والأخوة والمحبة والمودة والحميمية.

الخاتمة

تمت مناقشة النماذج الأربعة للوحدة الإسلامية، وإبراز مدى تأثير وعمق كل نموذج، ونظريات المنظرين القلقين من هيمنة الغرب على العالم الإسلامى. كما عرضت أمام الباحثين والعاملين فى مجال الوحدة الإسلامية الأفكار النافعة لأحد مؤسسى النموذج التاريخى للوحدة.

ونحن نرى أنه، على خلاف سوء الفهم وأشكال الغفلة، فإن الروح التى هبت قبل أربعة عشر قرناً على رمال الحجاز، فحركت تلك الصحراء الصامتة، قادرة اليوم على تحريك المجتمعات النائمة والساكنة، وجمع المسلمين فى صف واحد، وقطع يد المستعمرين.